الطبعة الرابعة

لم أعُدْ أبكي

زينب حفني

رواية

دار الساقي

لم أعد أبكي

زينب حفني



رواية



الطبعة الأولى 2004
الطبعة الرابعة 2013

ISBN 978-1-85516-466-6

دار الساقي

بناية النور، شارع العويني، فردان، ص.ب: 113/5342، بيروت، لبنان
الرمز البريدي: 6114–2033
هاتف: 442 866-1-961+، فاكس: 443 866-1-961+

email: info@daralsaqi.com

يمكنكم شراء كتبنا عبر موقعنا الإلكتروني
www.daralsaqi.com

تابعونا على
@DarAlSaqi
دار الساقي
Dar Al Saqi

إلى نفسي. . . لأثبت حَقّها في البقاء.



طفولة مخدوشة

(١)

نفضت غادة غطاء السرير عن جسدها. بدا قميص نومها منحسراً إلى الأعلى، كاشفاً عن ردفين جميلين وساقين متناسقتين وبشرة ملساء تظهر نعومتها من تحت ضوء «الأباجورة» الخافت المنبعث من ركن الغرفة. تقلّبت على جنبيها، مطّت ذراعيها، تثاءبت بدلال، نظرت صوب المنبّه الموضوع على المنضدة الملاصقة لسريرها. كانت الساعة تشير إلى الحادية عشرة صباحاً. قفزت من مكانها. أمامها الكثير من المشاغل التي عليها أن تنتهي منها اليوم. دلفت إلى الحَمّام الكائن داخل غرفة نومها، وقفت أمام المغسلة، أخذت تتأمل ملامحها بإعجاب. ابتسمت بغنج. تدرك كم هي فاتنة: شعرها الكستنائي المتموّج يغطي سحابة ظهرها؛ وجهها الأنثوي الجذاب؛ حاجباها الكثيفان المرسومان بعفوية؛ عيناها الواسعتان المغروس فيهما فصان عسليان؛ شفتاها المكتنزتان؛ أنفها الشامخ الصغير؛ بشرتها الغضة، البضة؛ جسدها الملفوف النحيف؛ طولها الفارع؛ نهداها البارزان؛ مشيتها المتبخترة. كانت قد اعتادت رؤية نظرات الانبهار ممن تقع عيناه عليها من الرجال، ونظرات الحسد والغيرة في أعين النساء. تتذكر جيداً أول عريس تقدّم لخطبتها. كانت وقتئذ لم تتجاوز الخامسة

عشرة من عمرها، وكان الكثير من الأقارب والمعارف يتمنّون أن تصبح زوجة لأحد أبنائهم.

ملأت المغطس بالماء الساخن، تحسّست درجة حرارته بأطراف أناملها. استرخت فيه، أغمضت عينيها، سرحت بفكرها في حفل الجامعة الذي تقيمه إدارتها الليلة بمناسبة تخرّج دفعة من طالباتها لهذا العام. قالت لنفسها:

ـ آه، ما أسرع السنين! لا أصدق أنني قد حصلت على الشهادة الجامعية. ما أجمل الأحلام حين تصبح أمراً واقعاً! كم هو ممتع الإحساس بطعم النجاح!

فرغت من الاستحمام، ارتدت بنطالاً أسود مع قميص قطني أرجواني اللون. عقصت شعرها خلف رأسها، مشت بخفّة صوب غرفة نوم والدتها. كانت تجلس على سجّادة الصلاة كعادتها، متلفّعةً بوشاح قطني يغطي رأسها وكل جسدها، تقرأ بصوت خافت من المصحف الموضوع في حجرها. قبّلت غادة جبينها، تمتمت: صدق اللّه العظيم. نظرت صوب ابنتها بحنان قائلة:

ـ كم أنا فخورة بك! أحمد اللّه أنه لم يُضيّع تعبي. ربنا يحفظك من السوء ويحقق مرادك.

ثم صمتت هنيهة متابعة:

ـ أتمنّى يا ابنتي أن تكوني في مثل هذا اليوم من العام القادم في بيت زوجك.

ابتسمت غادة قائلة:

ـ هل تريدين شيئاً يا أمي؟ أنا ذاهبة إلى مصفّفة الشعر.

ضمّتها أمها إلى صدرها مردّدة عبارتها المعتادة:

ـ اللَّه يسعدك ويجعل حظك أفضل من حظ أمك.

* * *

كان حفل الجامعة رائعاً. استُهلَّ بآيات من القرآن، قامت بتلاوتها فتاة من خريجات قسم الدراسات الإسلامية، ألقت بعدها عميدة الجامعة كلمة تخلّلتها عبارات شكر للهيئة التعليمية وتهنئة للخريجات، وانتهت بكلمة وداع مؤثرة حرّكت مشاعر الفتيات وطفحت لها عيونهن بالدموع، أعقبتها فقرة ترفيهية بتقديم عدد من الفتيات رقصات شعبية تُمثّل مناطق المملكة كافة من حجازية ونجدية وعسيرية. انخرطت الخريجات في أحاديث جانبية مع معلّماتهن، حول أحلامهن المستقبلية، وحرصت غادة يومئذ على أن تُحضر معها «أوتوغرافاً» صغيراً اشترته لهذه المناسبة، لتسجل لها معلّماتها وزميلاتها سطوراً مقتضبة فيه، ليقينها بأن الأيام ستجرف الجميع: كل في درب مغاير لدرب الأخرى، ولا تدري إن كانت الأقدار ستجمعها بهنّ مرة ثانية!!

* * *

انشغلت غادة في الأيام التي تلت الحفل في حضور حفلات عقد قران وزفاف عدد من صديقاتها وزميلاتها، وأخذت صاحباتها يلمّحن إليها بعرسان من أقاربهن. كانت الإجابة بالرفض كالعادة، متعلّلة برغبتها في تأمين مستقبلها المهني أولاً، وثانياً لأنها لم تلتقِ بعدُ فارس أحلامها. وأدى عزوفها عن الزواج إلى ارتفاع حرارة الحيرة في أعماق والدتها، وتحريك مجرى القلق في فكرها. وكلما حاولت إقناعها بموضوع الزواج، ينتهي النقاش بينهما بإذعانها على

مضض لرأي ابنتها، حتّى أخذت تتكوّن سحابة من الخوف في عينيها، ويرتسم سؤال صامت على شفتيها كلما رأت ابنتها تتزيّن للذهاب إلى واحدة من هذه الحفلات: متى سأراك عروساً؟!

* * *

كانت غادة في الثانية والعشرين من عمرها حين تخرجت من الجامعة، وبدأ همس يدور بين الأهل والأقارب عن السبب الحقيقي لعزوف فتاة جميلة مثل غادة عن الزواج!!

قالت لها والدتها بنبرة متأسية:

ـ أليس حلم كل فتاة أن تصبح زوجة وأماً؟! هل هناك أهم من الزواج في حياة البنت؟!

ـ نعم يا أمي، هناك تأمين المستقبل. ماذا جنيتِ أنتِ من الزواج سوى الدموع والحسرة؟!

ـ ليست تجربتي مقياساً. هناك بيوت سعيدة.

ـ نسبة نجاحها، ويا للأسف، ضئيلة. وأنت تدركين هذا جيداً. أمي، لا أريد أن أكرر مأساتك. أرجوك ألاّ تضغطي عليَّ.

ـ هل تعتقدين أنني سأعيش إلى الأبد؟ أريد أن أرى أحفادي قبل أن أموت.

ـ كلّه قدر مكتوب يا أمي. اللّٰه يعطيك الصحة وطول العمر.

كانت غادة تعلم، في قرارة نفسها، أنها تتذرَّع بأعذار واهية، وأن في أعماقها ذكرى بعيدة تربض داخلها وتتحكم فيها، هي السبب الحقيقي في عزوفها عن الزواج.

* * *

لغادة هوايات عديدة: الحفر على الخشب أشكالاً متباينة من الزخارف الإسلامية؛ تنسيق الزهور؛ ولعها وهوسها بالقراءة. وعند ولوجها مرحلة المراهقة غدت تصرف جلّ وقتها في قراءة الأدب العالمي لكتّاب أمثال تشيكوف ودوستوفسكي وفرجينيا وولف وغيرهم، إلى جانب الروايات العاطفية العربية لروائيين منهم إحسان عبد القُدّوس ويوسف السباعي وعبد الحليم عبد اللّه. تعيش مع بطلاتها بكل أحاسيسها، تشعر بمعاناتهن، وتتألم لجراحهن، وتتوقف طويلاً عند مشاهد الفراق، وتنهمر الدموع بحرقة من مقلتيها عند نهاياتها التعيسة. ثم اتسعت قراءاتها لتشمل أنواعاً أخرى مثل أدب غادة السمّان وانبهرت بأسلوبها الجريء، وأُعجبت كثيراً بأدب جبران خليل جبران المغلّف بالطابع الإنساني. سألت معلمة اللغة العربية الفلسطينية الجنسية، وكانت حينئذ في نهاية المرحلة الإعدادية:

ـ لماذا يتغنّى جبران دوماً بوطنه؟! وإذا كان الوطن هو الملاذ الآمن للإنسان، فلماذا تركه خلفه ومضى مُؤْثراً العيش في أرض بعيدة، حتّى التهمته الغربة فمات وحيداً ووارى جثمانه ترابٌ أجنبيّ الهوية؟!

ردّت عليها بنبرة منكسرة:

ـ لا يدرك قيمة الأوطان إلاّ من أُجبر على مغادرتها قهراً. لا تعتقدي أن الوطن لعبة في أيدينا أو مجرّد كلمة نُدرجها في خانة صغيرة بجواز سفرنا، مهمّته محصورة في تجاوز حواجز المطارات والتنقّل عبر القارات. الوطن أسمى من أن نُقامر به. غداً، عندما

ينضج فكرك، ستعين كلامي هذا جيداً وتفهمين ماذا يعني الوطن. ستُدركين لماذا يضحي الإنسان بروحه من أجله. إنها بذرة الانتماء التي تلتصق بأحشائنا وتكبر معنا، وتُشعرنا بقيمتنا كآدميين.

ـ ولكن، ما الذي يُرغم المرء على هجرة وطنه؟!

ـ عوامل كثيرة يطول شرحها. لكن ضعي نُصبَ عينيك دوماً أن علاقتنا بأوطاننا أسمى أنواع الحب، لكونه لا يقوم على زيف المشاعر!!

* * *

عادت غادة متأخرةً من حفل خطبة واحدة من صديقاتها. رقصت كثيراً، ضحكت، تبادلت النكات مع رفيقاتها، استمعت إلى حكاياتهن الطريفة. كانت تعبة، مخدرة من فرط النعاس. دخلت غرفتها والبيت يعمّه الهدوء كالعادة، حرّكت النسمات الربيعية المصاحبة لشهر فبراير مشاعرها الخامدة، جثمت فجأة على صدرها كتلة من الأحزان لم تعرف دوافعها. سرحت بذهنها بعيداً، أحسّت برغبة عارمة في فتح غرفة ماضيها والنبش في محتوياتها. مدّت يدها إلى درج مكتبها، أدارت قفله، أخرجت من بين الأوراق المكدّسة دفتر مذكراتها العتيق، الذي تُسطّر فيه بين حين وآخر أهم وقائع حياتها. استرخت في فراشها، بدأت تقرأ سطوره من الصفحة الأولى.

(٢)

ترتبط سنة مولدي بعلامة مميزة في التاريخ السعودي. كان العام الذي تولّى فيه الملك فيصل حكم البلاد عام ١٩٦٤، زاخراً بالوقائع المثيرة والأحداث العاصفة التي انتهت بتنازل الملك سعود عن الحكم لأخيه فيصل، كما درستُ لاحقاً في منهاج التاريخ المدرسي. لا أذكر شيئاً من تفاصيل سنوات ولادتي الأولى إلا ما سمعته على لسانَي أبي وأمي من أنني أشعت البهجة والسرور في قلبيهما بعد أن انتظرا قدومي سنوات. بدأ وعيي بطفولتي في سنّ الثامنة ربما لأن الأحداث التي مررت بها وقتئذ شكّلت منعطفاً كبيراً في حياتي. نجحت في الصف الأول الابتدائي وترفّعت منه، وكنت فيها في بداية العطلة الصيفية، ألعب بدميتي في غرفتي حين سمعت فجأة صراخ أمي يدوّي في أرجاء البيت. رميت لعبتي على الأرض. تسلّل إلى أعماقي الخوف. تملّكني الذعر. حضرتني حكايات «أمنا الغولة» التي كانت تسردها أمي عليّ بين فينة وأخرى. خرجتُ من غرفتي أتعثر في خطواتي صوب غرفة أمي، يسبقني لهاثي. دارت عيناي الهلعتان تبحثان عنها. كانت مُسجّاة على الأرض. شعرها الأسود مبعثر على وجهها الغارق في الدموع؛ جفناها متورمان من كثرة البكاء؛ ثوبها متجعلك منحسر

عن جذعها السفلي. ارتميت في حضنها، دفعتني بغلظة عنها مردّدة بنبرة متشنّجة:

ـ لقد طلّقني والدك. هانت عليه العشرة. لن أسامحه لنهاية عمري.

همد صوتها فجأة، خبت أنفاسها، أضحت بلا حراك. تفاقم خوفي. هززتها بكفيَّ الصغيرتين منادية إياها:

ـ أمي، أمي!!

لم ترد عليّ. انفلتت من بين أصابعها ورقة مكوّرة، التقطتها، تلفتُّ حولي. لم أجد أحداً، خرجت أجري في أنحاء البيت بحثاً عن مُربّيتي، لم أعثر عليها. كان يوم الجمعة عطلتها الأسبوعية. انخرطتُ في النحيب. توجّهت نحو باب البيت، وقفت على أطراف أصابعي لأمسك مقبضه، فتحته بصعوبة ورحت صوب الحديقة إلى غرفة السائق زيد، الكامنة في الزاوية عند مدخل البيت الخارجي.

بيتنا ذو طابق واحد، واجهته الخارجية مدهونة بالطلاء الأبيض وسقفه مغطى بقرميد أرجوانيّ اللون. يحتوي على ثلاث غرف، غرفة أمي وغرفتي والغرفة الثالثة مفروشة بالكامل تحسباً لأي ظرف طارئ. لكل غرفة حمّامها الخاص بها، وهناك بهو مفتوح على غرفة جلوس كبيرة مع مطبخ مجهّز بالمستلزمات كافة. حديقة منزلنا غاية في الروعة، كان زيد يعتني بها جيداً. يقوم بتشذيب الأشجار وجزّ الأعشاب الميتة، وقام بزرع حوضين من الفُلّ عند مدخل البيت فكانت رائحته الفواحة تملأ أرجاء المكان،

إلى جانب دالية كانت تظلّل السيارة وتحميها من وهج الشمس الحارق.

كان باب غرفة زيد موارباً، دلفت إليها ومفاصلي ترتعد. وجدت زيداً مضطجعاً على سريره المعدني الذي يتوسط الغرفة. فزع حين رآني، أخذ يهدئ من روعي، وسألني بلطف عن سبب بكائي. ناولته الورقة، اصطدمت عيناه بالسطور المكتوبة، بدت علامات التأثر على وجهه. كانت الورقة تتضمّن طلاق أمي، فردها زيد بباطن كفّه ثم طواها بعناية.

غرفة زيد صغيرة، في سقفها لمبة نيون، تحتوي على سرير فردي حديدي ومروحة عمودية، تقف بمحاذاته محركة هواء الغرفة الساخن. كانت هناك أيضاً طاولة خشبية متهالكة، وُضع عليها أنبوب صغير من الغاز وإبريق للشاي وكوب زجاجي، وكان إلى جانب الطاولة كرسيّ من المعدن، وتتوسط أرضية الغرفة سجادة شرقية قديمة من الصوف.

كان زيد يرتدي قميصاً وسروالاً داخلياً من القطن، وقد برز شعر صدره الكثّ من فتحة قميصه. العرق يتصبّب من جبينه. رائحة إبطيه النفّاذة تملأ المكان. سحبني من يدي ورفعني ليُجلسني في حجره وأخذ يمسح دموعي بكفّه. كانت حينئذ تُسيطر عليّ مشاعر متباينة مبهمة من التوجس والهلع والالتياع. دفنت وجهي الصغير في كتلة صدره، كان الجو حاراً لزجاً. الشمس حارقة في الخارج، والساعة تشير إلى الواحدة ظهراً. غفوت هنيهة على كتفه. أفقت فجأة على حركة غريبة، رفعت رأسي ونظرت في

وجه زيد، كانت عيناه تلمعان لمعاناً غريباً. لم أفهم حينها تلك الإشارات المنبثقة منهما. ضمّني إليه وأخذ يتحسّس جسدي. تمادى أكثر. وارى أصابعه بين فخذيَّ، تطلعت إليه مغتبطة، ظلَّ على هذه الحال دقائق معدودة، غاب سواد عينيه، أخذت ساقاه ترتجفان، تراخت بعدئذ قواه، أحسست بسائل دافئ يُبلّل ثوبي، قلت له ببراءة:

ـ لقد تبوّلتَ على نفسك يا زيد. لو رأتكَ أمي لوبّختك. تُحذّرني دائماً من التبول ليلاً في سريري. تقول إنني كبرت على هذه الفعلة!!

طافت على وجهه تعابير من الخجل نظر صوبي بمجامع عينيه وربّتَ بيده على ظهري. أنزلني إلى الأرض، انزوى في أحد الأركان وغيّر سرواله ثم حملني إلى البيت ووضعني في فراشي. سحب نفسه بسرعة بعد أن وضع صك الطلاق على الرف المعلق في مدخل الصالة.

* * *

زيد يمني الجنسية من مدينة تعز، قدم إلى السعودية في سن التاسعة مع أحد معارفه الذي قام بتشغيله في أحد المقاهي الشعبية التي كانت تنتشر وقتها في مدينة جدة. تعوّد أبي في تلك الآونة التردّد إلى هذا المقهى لتدخين «الشيشة»، فكان زيد يقوم بتلبية طلباته بخفة ومهارة. أُعجب أبي بنباهته، وعرض عليه العمل في متجره. قَبِل زيد العرض فوراً، وما لبث والدي أن شجّعه بعد فترة وجيزة على الالتحاق بمدرسة ليلية ليتعلّم القراءة والكتابة حين

لمس هذه الرغبة لديه، وعندما أصبح موضع ثقته بدأ يرسله إلى بيتنا لقضاء حاجاتنا وشراء الأغراض التي تحتاج إليها أمي. اقترحت أمي على أبي بعد أن شبّ زيد قليلاً، أن يعمل عندنا حارساً بالبيت، ويستمر في مهامه التي اعتادها إلى جانب أعمال أخرى مثل تنظيف الحديقة ومراقبة البوابة. وخصص له أبي بالفعل الغرفة الواقعة في ركن الحديقة لتكون مسكناً له. دخل زيد بيتنا للعيش بصفة دائمة وهو في الرابعة عشرة من عمره. كنت وقتذاك قد أتممت سنواتي الثلاث. حكت لي والدتي عن تلك المرحلة. كانت تطلب إليه أن يلاعبني في الحديقة على تلك الأرجوحة التي ما زالت ملقاة في فناء البيت الخلفي بالرغم من الصدأ الذي علاها. وكلّما أعلنت أمي رغبتها في التخلّص منها، رفضتُ بشدة وأصررتُ على بقائها. كانت تعني لي الكثير وجزءاً حميماً من ذكريات طفولتي، وما زلت إلى اليوم كلّما وقع بصري عليها يفاجئني الماضي بكل خباياه، وأشعر بأن حياتي مثل الأرجوحة، تُطوّح بي أحياناً في الفضاء، وتقذفني أحياناً على الأرض. حرص زيد على جلب لعبة لي كل عام مع حلول عيد الفطر. كانت أمي تعاتبه على تصرّفه وتنصحه بوجوب ادّخار نقوده وأنه هو وأهله أحقّ بها. كان يظهر الأسى على محياه فيردّ عليها بأنه يعتبرنا مثل أهله الذين حُرم منهم مبكراً ولا يراهم إلا في فترات متباعدة.

زيد هادئ الطبع، قليل الكلام، انطوائي، قامته قصيرة، بنيته ضئيلة، قمحي البشرة، له عينان شديدتا السواد مع مقلتين واسعتين وأرضية ناصعة البياض. شعر رأسه أسود غزير يغطي نهاية رقبته. كانت فورة شبابه قد بدأت تكبر في أعماقه، محاوِلة فكَّ إسارها

بالتمرّد عليه بين فينة وأخرى، فكان ينصاع لها ويُخمد فورانها ليلاً بيده. لم يعرف ماذا تعني أنثى!! وكيف تبدو تفاصيل جسدها!! كانت معلوماته مستمدة من معارفه المقيمين معه في جدة، الذين كانوا يمدّونه من وقت إلى آخر بصور لفتيات عاريات، مقصوصة من مجلات أجنبية، فكان يحشرها بين ساقيه ويريق ماء شهوته على إحداها، ويصغي بنشوة إلى حكايات المحرومين أمثاله من الغرباء الذين اعتادوا الذهاب إلى «الكارنتينا»، وهو المكان الذي كان يعيش فيه الأفارقة السود ممن لا هوية لهم وتخلَّفوا عن العودة إلى بلادهم بعد موسمي الحج والعمرة، فيلتقطون من هناك بعض الفتيات ويفرغون فيهن شهواتهم. لكنه لم يجسر يوماً على زيارة هذا المكان والإقدام على مثل هذا التصرف، ولا يدري ما السبب؟! هل كان تهيباً من عالم المرأة؟ أم خوفاً من الوقوع في مشاكل قضائية بسبب مداهمات الشرطة لهذا الوكر المشتبه فيه؟!

أخبرني بعد سنوات من علاقتنا، أنه أحبّني منذ كنت طفلة يلاعبها في الحديقة، وعشقني طوال سنوات عمره الفتي ولياليي حرمانه الطويلة، واعترف لي بأنه في ذلك اليوم الذي فجّر فيه فحولته المكبوتة معي لأول مرة، عاد إلى غرفته يبكي. أحسّ بوخز الضمير تجاه الرجل الذي ائتمنه على بيته وأسرته ثم ردّ له الجميل بالجحود والغدر، مقسماً بينه وبين نفسه ألا يعاود فعلته مرة أخرى، ثم قام واغتسل وجلس يقرأ آيات من القرآن.

* * *

لم أعرف السبب المباشر لطلاق والديَّ إلا بعد أن كبرت.

حكت لي أمي حكايتها مع أبي منذ البداية إلى النقطة التي نسج فيها القدر خيوط النهاية. كانت أمي السيدة خديجة صابر، من بيت طيب، امرأة عاديّة الجمال، غاية في الطيبة، تتلو بعض السُّوَر القرآنية عن ظهر غيب. تعلمت مبادئ القراءة والكتابة، وتزوجت وهي في الخامسة عشرة من عمرها، وكان أبي وقتئذ في الخامسة والعشرين، يكبرها بعشر سنوات. تتمتع بعقل راجح بشهادة الأهل والأقارب. ساندت أبي في مشوار حياته بالرغم من حداثة سنّها، ومكثت سنوات بدون أطفال، حتّى منَّ اللّه عليها وولدتني بعد سبع سنوات طوال من الانتظار. طفح قلبها بالسعادة لأن اللّه استجاب أخيراً لدعائها. وما لبثت أن تدهورت صحتها بعد أن أصبح عمري خمس سنوات. عرضها أبي على الأطباء، واتفقوا على وجوب استئصال المبيضين لأنهما باتا يشكلان خطراً على حياتها. رفضت أمي الأمر بشدة. سافر بها أبي إلى القاهرة لمعرفة رأي الأطباء هناك، وسمعا الرد نفسه، فاستسلمت لقدرها ووافقت على إجراء العملية. تغيّرت أمي كلياً بعد ذلك، كانت تتمنى في قرارة نفسها أن تلد إخوة لي يملأون البيت بضجيجهم، وصارت تتحرك في داخلها الوساوس وتسيطر عليها الأفكار السوداء. أصبحتُ شغلها الشاغل، لا تريدني أن أغيب هنيهة عن ناظريها، وعندما بلغتُ السابعة صارت تصحبني بنفسها إلى المدرسة في الذهاب والإياب على الرغم من عدم اقتناع أبي بتصرّفها. ثم بدأت تنتابها هواجس أخرى بأن أبي سيتزوج عليها لكي ينجب ولداً يحمل اسمه من بعده، مما أدى بها إلى الوقوع رهينة الاكتئاب، وتفاقمت المشاكل بينهما. صار أبي يهرب من جوّ البيت الخانق

ويختلق الأعذار للسفر بحجّة العمل. صبَّ همّه في تجارته، وبدأت أعماله تتسع وذاع صيته في السوق. وكلما ارتفعت أسهم نجاحاته تأجّجت نيران الغيرة في قلب أمي. حاول بشتى الوسائل تجاوز خلافاتهما، واستعان ببعض الأقارب لتهدئة المشاكل بينه وبين أمي، لكن ما إن يهدأ الوضع قليلاً حتّى يعاود الاشتعال، إلى أن خرج عن نطاق السيطرة، ونفد صبر أبي وحصل ما حصل في ذلك اليوم المشؤوم الذي قلب حياة أمي وحياتي معها. كانت أمي تخطو نحو عامها الواحد والثلاثين عند طلاقها. كانت في ذروة أنوثتها. وكبتت مع هذا غريزتها. أغلقت الباب على نفسها، لم تحاول أن تدسَّ رجلاً في حياتها. رفضت كل من تقدّم لها بعد طلاقها، وانعزلت عن المجتمع، واكتفت من الحياة بأن استسلمت لظروفها. تركت أمواج الحياة تدفعها إلى أعماق اليمّ من دون أن تُبدي أي مقاومة. كنتُ وحدي داخل دائرة الضوء الخافت في حياتها، مما أدى إلى تكالب الأمراض عليها، حتى ظهرت عليها ملامح الشيخوخة وهي ما زالت في ريعان شبابها.

لم يتمكن عقلي الصغير وقتئذ من تفهّم معاناتها. وعندما كبرت وبدأت أدرك ما يجري من حولي، ازددت التصاقاً بها. كان بداخلي نداء صارخ يلحّ عليّ دوماً محاولة تعويضها عن حب أبي الذي تسرّب في لحظة خاطفة من بين يديها.

* * *

تزوج أبي بأمي زواجاً تقليدياً كعادة معظم الأُسر السعودية في ذلك الوقت. أخبرته جدتي أنها وجدت له العروس المناسبة. لم

يسألها عن شكلها. كان أهم شرط لديه أن تكون من عائلة متديّنة، وذات سمعة حسنة. كان يردّد على مسمعي أن أمي كانت وجه السعد عليه بالرغم من الفجوة التي حصلت بينهما وأدت لاحقاً إلى الطلاق. حكى لي قصة كفاحه: كيف نشأ طفلاً يتيماً وحيداً. بدأ تجارته بالميراث الضئيل الذي تركه له جدي. استأجر دكاناً صغيراً لبيع الأقمشة النسائية في شارع ضيق بأحد الأحياء الشعبية. حرمت أمي نفسها وقتذاك من أشياء كثيرة واقتصدت في مطالبها لكي توفر له المال، حتّى استطاع بعد فترة استئجار دكان كبير في موقع تجاري حيوي، وتوسعت تجارته شيئاً فشيئاً إلى أن أصبح يمتلك عدة فروع في أكبر مدن المملكة. حكى لي بتأثر أنه لم يفكِّر يوماً في طلاق أمي، لكن تفاقم الخلافات أوصله إلى قرار الطلاق بعد أن اقتنع بأن الحياة غدت مستحيلة بينهما. حفظ أبي صنيع أمي، فلم يتخلَّ يوماً عن واجباته تجاهها، وكان يرسل في نهاية كل شهر مظروفاً يحتوي على مصاريفنا إلى جانب تحمّله تكاليف علاجها كافة.

كان أبي في عامه الثاني والأربعين حين خاض تجربة زواجه الثانية. تزوج بابنة أحد أصدقائه الذي عرضها عليه. وافق أبي بعد تردّد لفارق السن بينهما. كانت في السابعة والعشرين يوم تزوجها، ومع هذا نجحت علاقتهما الزوجية، وأنجبت له ولدين وبنتاً. اشترط عليها يوم عقد القران ألا تتدخل في أي أمر يتعلق بي وبأمي أو بمسؤولياته تجاهنا، فكان أهم ما يميّز علاقتها به احترامها رغبته، وكان هذا التصرف مبعث تقدير في نفس أبي مما عزّز مكانتها في قلبه. حاول أبي مراراً أن يقرّبني من زوجته ومن

إخوتي بإلزامي أسبوعياً قضاء نهاية الأسبوع معهم. كانت زوجته لا تكلُّ من محاولاتها التودُّد إليّ من خلال ترحيبها الدائم بي كلّما ذهبت لزيارتهم. إلا أن كل هذا لم يؤدِّ إلى إذابة جدار جليد التحفظ القائم بيني وبينهم!! كنتُ أحمل في أعماقي، لاشعورياً، عتباً داخلياً على أبي لأنه لم يحاول لملمة الخلافات التي حصلت بينه وبين أمي، إلى جانب حرصي على مراعاة مشاعر أمي التي أفنت زهرة شبابها من أجلي. ظلّ إحساسي بالوحشة والاغتراب يصاحبني في كل مرة أطرق فيها باب بيت أبي، بل كانت الغيرة في كثير من الأحيان تتحرك في أحشائي حين أرى إخوتي يتحلّقون حول أبي وهم يتضاحكون، فأتذكّر أمي لحظتئذ وأحسّ بغيوم الغمّ تحوم فوق رأسي وتتسرب المرارة إلى أعماقي لأني حُرمت مبكراً من دفء الأسرة ومن تذوّق طعم الحياة الطبيعية بالعيش في كنف أبي وأمي.

* * *

كان زيد الرجل الذي ملأ عالمي الصغير، وتفتّحت براعم أنوثتي على يديه. صحيح أن ملامحه سقطت في قاع ذاكرتي مع مرور الأيام وتعاقب السنوات، إلا أن الحزن على فراقه ظلّ ينتابني بين حين وآخر. كان زيد في ذلك الماضي البعيد الملجأ الآمن، الذي عوّضني عن الحضن الأسري الذي افتقدته مبكراً، خاصة في الفترة التي أعقبت طلاق أمي. كانت منغمسة في أحزانها، تتلهّى بلملمة همومها المبعثرة، وتطبيب جراح فؤادها. أما أبي فقد انكبَّ على عمله وحصر فكره في تنمية تجارته. لم أجد سوى دنيا زيد التي كانت تثير دوماً دهشتي وغبطتي. وقد عاد إلى تكرار فعلته

مرات ومرات بعد ذلك اليوم الذي أطلق فيه قيود فحولته معي. لكنه لم يفكر يوماً في أن يغوص في مساحات جسدي الخطرة، ربما خوفاً عليّ، أو تحسّباً للعواقب. وظلّت حدود «اللعبة» لا تتجاوز هذا الخط. فكنت أستسلم لمداعباته بنشوة عفوية. قال لي يوماً بعد أن أراق ماء شهوته والعرق يتصبّب من جبينه:

ـ إياك أن تخبري أمك عن «لعبتنا»، فهي لا تحبها. وإذا عرفت فستطردني من البيت ولن تريني مرة أخرى.

رددت يومها عليه ببراءة:

ـ لا، لن أخبرها، فأنا أحب اللعب معك.

كنت أحسّ عندما لا أراه بأنني تائهة، وثمة شيء مجهول ينقصني. وأظلّ أبحث عنه في أرجاء البيت ولا أهدأ حتى تقع عيناي عليه، فيحملني على كتفه، ثم يصحبني إلى غرفته ليلعب معي لعبتي المفضلة. عندئذ كانت تعلو رنّات ضحكاتي في فضاء المكان. لم أكن أدرك أن طفولتي غدت مخدوشة، وأن براءتي قد انتهكها زيد بشبابه الفائر!!

بدأت أنوثتي تتفجر حينما بلغت الثالثة عشرة من عمري، وتولّدت في داخلي طاقة هائلة من الرغبة، وغدا كل من حولي يتغزلون بجمالي. تفاقم خوف أمي عليّ وبدأت تحاسبني على خطواتي. منعتني من الخروج إلى الحديقة بمفردي، أو التحدث إلى زيد من دون أن أضع وشاحاً على رأسي. شعرت حينئذ كأنني في سجن انفرادي، وأن شيئاً جميلاً في حياتي قد انتُزع مني. كنتُ مثل المدمن الذي منعوا عنه مخدّراً، وحده من يستطيع تهدئة

توتّره. لم أعد أركّز في دروسي. انطويت على نفسي. غابت ضحكاتي التي كانت تصدح في البيت. فقدت شهيتي للأكل، هزل جسدي. حارت أمي في تصرفاتي. حاولت معرفة ما بي، لم تفلح في نزع اعتراف ولو ضمنيّ بالسرّ الذي أحمله بين جوانحي. كانت تحذيرات زيد تطنّ في أذني. أشارت عليها قريبة لنا باصطحابي إلى أحد المشايخ لطرد العين الحاسدة التي أصابتني. أعطاها الشيخ بعض الماء المقروء عليه وأوصاها بأن أستحمَّ به، وأكد لها أن النتيجة مضمونة. أضحت أمي من حينها لا تنام قبل أن تقرأ بعض الأذكار وهي واضعة يدها على جبيني لطرد العيون الحاسدة. إلا أن كل هذا لم يُجد. كان الشوق إلى لعبة الجسد مع زيد تلحّ عليَّ بشدّة يوماً بعد يوم. استيقظتِ ذات ليلة من نومي مذعورة كأن ناراً تندلع في فراشي. كانت الساعة تشير إلى الواحدة بعد منتصف الليل. يستعر شبقي المتوحش في داخلي، يحاصرني من الاتجاهات كافة محاولاً دفعي إلى الاستسلام. وجدت نفسي بلا وعي أنفض اللحاف عن جسدي وأتسلّل بخفّة من غرفتي. ألقيت نظرة على أمي النائمة. فتحت بحذر باب البيت، وتوجّهت صوب الحديقة إلى غرفة زيد. كنت أرتدي منامتي القطنية السماوية اللون، يربطها من الكتفين خيطان رفيعان، وقد برزت هضبتا نهديَّ اليانعين من فتحة الصدر. الجو معبّأ برطوبة أغسطس، والليل ساكن لا يخترقه إلا مواء القطط الشاردة خارج سور البيت يتردّد صداه مع أبواق السيارات لحظة مرورها. طرقت باب غرفة زيد طرقات خفيفة. لم أتلقَّ رداً، عاودت الطرق. فتح الباب وهو يفرك عينيه. لمحت بريق الفرحة يقفز في عينيه لحظة رآني، من

خلال انعكاس شعاع الضوء المنبثق من الأنوار المعلقة بسور البيت على صفحة وجهه. كان مرتدياً كعادته قميصه الداخلي وسرواله الأبيض الطويل. تلفّت حوله في ارتباك ثم سحبني من يدي وأغلق الباب. لم يسألني ما الذي أتى بي، كأنه كان يترقّب مجيئي. ضمّني إلى صدره بقوة ثم نظر في عيني بأسىً طالباً إليّ برجاء وتوسّل أن أعود إلى غرفتي قبل أن تكتشف أمي غيابي. لم أُعِر كلامه اهتماماً، ودفنت شفتي في شفتيه. فجّرنا في ومضة خاطفة كل براكين أشواقنا المكبوتة على تربة اللاوعي. كان لقاءً عاصفاً. ظللنا ساعات متلاحمين حتى لاحت خيوط الفجر الأولى. لملمت لحظتئذ نفسي وهرعت إلى داخل البيت. اندسست في سريري وغرقت في سبات عميق. استيقظت عند الظهيرة، شعرت كأنني كنت أعيش حلماً جميلاً. أعدت شريط لقائي زيداً. تحسّست عانتي. أدركت أنني لم أعد عذراء. صرت امرأة وأنا أخطو إلى سنتي الرابعة عشرة. لم أشعر وقتئذ بالخوف أو بتأنيب الضمير، لم أحاول نصب محكمة لجلد ذاتي. كانت مشاعري منجرفة خلف هذا الرجل بلا تفكير. حاولت بعد ذلك مراراً مصارحة أمي بكل ما وقع لي، لكن خوفي على زيد وهلعي من ألاّ تتفهم حقيقة مشاعري نحوه، جعلاني أتراجع عمّا كان يدور في عقلي.

استمرّت علاقتنا إلى أن بلغت السابعة عشرة. كان زيد قد أصبح في الثامنة والعشرين. لم أكفَّ عن لقائه. كنا نلتقي أحياناً مرة في الأسبوع، وأحياناً أخرى مرتين أو ثلاثاً حسب ملاءمة الوقت والظروف. كانت والدته في تلك الفترة تلحّ عليه في رسائلها بوجوب العودة إلى اليمن، كي يبدأ حياته في بلده ويكوّن أسرة.

كان يخبرني عن رسائل أمه، كيف أنها لم تعد تطيق بقاءه أجيراً. وكان هو حائراً بيني وبينها: أنا التي أعشقه حتى الجنون، وأمه المسكينة التي أصبحت في أمسّ الحاجة إليه بعد أن كبرت في السن واعتلّت صحتها.

اختفى زيد من حياتي بين ليلة وضحاها. عرفت بقرار رحيله المفاجئ من والدتي. هرعت إلى غرفته كالمجنونة. بكيت بحرقة على صدره، سألته بعينين مذعورتين وقلب واجف:

ـ هل صحيح ما سمعته من أمي؟! هل حقاً سترحل؟! بكى طويلاً كطفل بين ذراعيَّ قائلاً:

ـ هناك هوة كبيرة تفصل بيننا. أين أنا منكِ؟ أنتِ في القمة، وأنا في القاع!! أنا رجل بائس يا غادة؛ مجرد عابر سبيل ضلَّ طريقه ولا بدَّ من أن يعود يوماً إلى أرضه. من المستحيل أن أظلّ قابعاً في الظلام طوال عمري. يجب أن أرجع إلى بلدي وأبني مستقبلي. غداً تتزوجين الرجل الذي يليق بكِ. سأرحل من أجلك. بقائي هنا خطر عليك. اعتبريني حلماً أفقتِ منه بعد سبات عميق.

استعطفته، رجوته أن يبقى، لكن توسّلاتي ذهبت أدراج الريح.

* * *

عشت شهوراً في معاناة نفسية شديدة. اصطحبتني أمي إلى الطبيب. طمأنها ووصف لي بعض الفيتامينات. اقترح أبي على أمي أن نقضي أسبوعين في المزرعة التي اشتراها في منطقة الشفا

بالطائف قبل بدء العام الدراسي الجديد، وقام بترتيب كل لوازم الرحلة لنا. شعرت بهدوء نفسي وسط الخضرة والطبيعة الخلابة المحيطة بي. كانت مزروعة بشتى أنواع الفواكه والخضار، تزينها أشكال مختلفة من الزهور والورود، فكنتُ أقضي نهاري في التنزه وقطف بعض الزهور. عدت أكثر صفاءً، وأخذت أهيّئ نفسي للمرحلة الجامعية بعد حصولي على شهادة الثانوية العامة.

* * *

حصل أول صدام حقيقي بيني وبين أبي حين صارحته برغبتي في السفر إلى الخارج، للالتحاق بإحدى الجامعات لدراسة الإعلام ـ قسم الصحافة. ثار في وجهي قائلاً:

ـ ليس عندي بنات يسافرن بمفردهن. هذا أمر مرفوض كلياً عندي.

رددت عليه في تبرّم:

ـ العديد من زميلاتي سافرن إلى أوروبا وأميركا عن طريق البعثات الحكومية.

ـ هذا الموضوع خارج نطاق النقاش. أمامك جامعة الملك عبد العزيز. اختاري أي قسم من الأقسام المتوافرة فيها.

أذعنت مُكرهةً لأوامر أبي. قررت الالتحاق بكلية الآداب ـ قسم المكتبات. وعندما أبلغته قراري تنفّس الصعداء ودعا لي بالتوفيق.

كان جو الجامعة مختلفاً كلياً عن عالم المدرسة الذي عشنا فيه أنا ورفيقاتي سنوات براءتنا ومشاغباتنا، بعكس الجامعة التي

زرعت فينا قدراً من المسؤولية ولو كان ضئيلاً. أحسستُ لأول مرة بمعنى الحرّية والحق في الاختيار: اختيار التخصص الجامعي؛ وأوقات المحاضرات. أشعرنا هذا القدر من المسؤولية بأننا نلج مرحلة جديدة من حياتنا، وأخذت شخصياتنا تتبلور وكلّ واحدة منا تفكّر في الدرب الذي تحلم به لبناء مستقبلها. كانت الجامعة خليطاً متبايناً من الطالبات، وملتقى للطبقات كافة. فتيات حضرن من مناطق مختلفة من المملكة، خاصة اللواتي قدمن من مناطق نائية لا توجد فيها جامعات، أو لا تتوافر فيها الاختصاصات المطلوبة، مما يضطرهن إلى المكوث طوال العام في المدينة الجامعية. وقد ساهمت هذه العوامل المستجدة في إخراجي تدريجاً من معاناتي التي عشتها في الآونة الأخيرة، وإن ظلّت علاقتي بزميلاتي الجديدات محصورة في استعارة نُسخ المحاضرات، أو مناقشة مضامين بعض المراجع، أو التقائهن في فترات الاستراحة في «كافتيريا» الجامعة لتناول المشروبات وتبادل الآراء حول مواضيع متنوعة. وبقيت تربطني صلة قوية برفيقات المدرسة، نتبادل الزيارات في العطل الأسبوعية، ونحرص على الالتقاء في المناسبات الخاصة. لكن ظلّت نشوى أقرب صديقة لي، بالرغم من توقفها عن إكمال تعليمها والاكتفاء بشهادة الثانوية التي بالكاد حصلت عليها وزواجها السريع بعدها.

* * *

نشوى مشاكسة مرحة، بعكس شخصيتي الهادئة الخجولة، وإن كانت تجمع بيننا صفتا العناد والتحدي. هيئتها الخارجية مختلفة عني. لها عينان سوداوان مثل عيون المها، وشعر غزير

فاحم، جدائله مثل أمواج البحر الهادئة في ليالي الصيف. بشرتها سمراء خمرية، متوسطة الطول، ويميل جسدها إلى الارتواء قليلاً. خصرها نحيل، ردفاها ممتلئان، ومؤخرتها بارزة. كانت مهرة عربية. تربطنا ذكريات جميلة منذ أيام المدرسة. كانت تُلحّ عليّ دوماً في قضاء عطلة نهاية الأسبوع معها، ولطالما كنت أُظهر لها تخوّفي من رفض أبي وحرصه على أن أقضي نهاية الأسبوع معه، فتهاتفه وتجعله بخفّة ظلّها يذعن لطلبها. كنا نبدّد الوقت في الفيلا التي يملكها والدها على شاطئ البحر. أرض كبيرة منحه إياها الأمير الذي كان يعمل والدها وكيلاً لأعماله، فكنا ننزل مبكراً للسباحة في البحر قبل أن يغصَّ بالناس، ونعود بعدها إلى النوم حتّى الثانية ظهراً ثم نستيقظ ونتناول وجبة خفيفة، ونبدأ اللعب بالورق والاستماع إلى الأغاني التي كثيراً ما كنا نتشاجر حولها. كانت تستهوي نشوى أغاني محمد عبده وعبد اللّه الرويشد وعبد الكريم عبد القادر، بينما أنا أحب الاستماع إلى أغاني فيروز ووردة وأُم كلثوم. ونظلّ على هذه الحال حتى الساعة الرابعة فتقوم الخادمة بتحضير طعام الغداء، نتمدّد بعدها في الشرفة للتشمّس. كان النهار يمرّ سريعاً، ولا يلبث أن يحلّ الغروب فأُقفل عائدة إلى البيت.

* * *

تنتمي نشوى إلى أسرة ميسورة، استطاع والدها أن يكوّن ثروة من إدارته لأعمال أحد الأمراء في السعودية. كان سخياً معه، يصحبه في جلّ سفراته إلى الخارج. فتحت نشوى عينيها على هذا العالم المترف، وزاد من دلالها أن والدتها لم تَلِد سوى طفلين:

هي وأخيها الذي يكبرها بعامين. لم يفلح أخوها في الدراسة وتعسّر فيها، تحسّر والدها، حاول دفعه إلى الاستمرار في مواصلة تعليمه. أحضر له مدرّسين خصوصيين، لكن أمله خاب بعد أن رسب ثلاث سنوات في الصف الأول الثانوي، مما اضطره إلى البحث عن وظيفة له. واستطاع بتوصية خاصة من الأمير أن يوظفه بشهادة الكفاءة في أحد البنوك الكبرى. عندما أعلنت نشوى هي الأخرى رغبتها في التوقف عن مواصلة الدراسة بعد حصولها على شهادة الثانوية، لم يكترث والدها كثيراً لقرارها، لإيمانه بأن البنت مصيرها الزواج وتكوين أسرة مهما نالت من شهادات علمية.

تزوّجت نشوى في سن الثامنة عشرة رجل أعمال في الخمسين، مقارباً لعمر والدها، لكنه كان متخماً بالثراء. وافقت على الزواج به فوراً فقد كانت تحلم بحياة مترفة مثل التي اعتادتها في بيت والدها. وغدت تُمضي جلَّ وقتها في مرافقة زوجها في معظم رحلاته إلى الخارج، وتبدّد الساعات في التفرج على دُور الأزياء ومحالّ المجوهرات لشراء ما ترغب منها. وما إن مرّت سنة على الزواج حتى بدأ الملل يتسرب إلى نفسها من جرّاء الروتين القاتل الذي تعيش في أجوائه. كان زوجها شديد الغيرة بحكم فارق السن بينهما، فحبسها داخل قصره، لا يسمح لها بالخروج بمفردها، أو حضور حفلات صاحباتها. وحتى أنا صديقة طفولتها، لم يكن يأذن لها بزيارتي إلا بعد إلحاح واستعطاف. ثم بدأت تظهر على زوجها علامات القلق لعدم حملها، فعرضها على كبار الأطباء. وخضعت لفحوصات كثيرة، تبين بأن ليس لديها أي عائق للحمل. كانت في قرارة نفسها متعطشة إلى طفل يملأ فراغ

حياتها القاتل. وغدت تشعر كأنها طائر محبوس في قفص متشوق إلى الطيران بحرّية في الفضاء الواسع. صارت تتأفف، وتراودها فكرة الطلاق. وعندما لمّحت لوالدتها إلى ما يجول في رأسها، صرخت في وجهها قائلة:

ـ هل جُننت؟! عائلتنا لا تعرف الطلاق. إياك أن تتفوّهي بهذه الكلمة أمام أبيك. ولا تركلي بقدميك النعمة التي وهبك إياها اللّه.

كانت تنفّس عن همومها بالبوح إليَّ بأسرارها، وتلحّ عليّ لزيارتها، فأجدها حزينة وقد غاب وميض المرح و«الشقاوة» الذي كان يُطلّ دوماً من عينيها. حتّى ضحكاتها المجلجلة وتعليقاتها الساخرة لم أعد أسمعها. ضاع صخبها ومرحها وسط أكوام همومها. أخبرتني يوماً عن حزنها المكبوت داخلها بينما كنا جالستين في حديقة منزلها، وكانت الشمس تتهيأ لتقذف بنفسها خلف البحار معلنة انتحارها. قالت لي بنبرة تنضح بالمرارة:

ـ ما أجمل لحظات الوداع! أتدرين يا غادة، ليس كل رحيل يُخلّف ألماً. هناك أشياء رحيلها أسلم لحياتنا حتّى لا نعيش مقيدين بها طوال العمر. إننا بحاجة دوماً إلى صدمات كهربائية تهزّ أجسادنا لكي نحسّ بوجودنا في الدنيا.

ولم يمضِ وقت طويل حتى تُوفّي زوجها. ذهبت توقظه من نومه فلم يردّ عليها. هزّته بقوة، ظلّ ساكناً. أمسكت بيديه، كانتا باردتين، وعيناه مسبلتين. أدركت حينئذ أنه فارق الحياة. هرعت إلى الهاتف مستنجدة بوالدها، وانخرطت في بكاء طويل وقد

تداخلت في أعماقها مشاعر متباينة من الأسى على موته والفرحة لأن القدر أعاد إليها حرّيتها. عادت إلى بيت والدها بعد أن رفض رفضاً قاطعاً أن تعيش بمفردها في بيت زوجها، فهي ما زالت شابة في مقتبل العمر، ولتسلم من القِيل والقال. رجعت تحمل لقب أرملة وهي لم تتجاوز العشرين. كانت شهور العدة قاسية على امرأة مثل نشوى المحبة للمرح والانطلاق. أحكمت أمها الرقابة عليها، ومنعتها من حضور الحفلات العامة أو المناسبات الكبيرة. سمحت لعدد محدود من صديقاتها بزيارتها. فكانت نشوى كلما طفح الملل على جدار قلبها وأحسّت بغريزتها تلحّ عليها، تقوم بقطع ليل وحدتها الطويل بالحديث مع شباب عبر الهاتف تدير أرقامهم عشوائياً، وتدخل معهم في أحاديث ملتهبة في الهزيع الأخير من الليل، تنتهي بأن يفرغ الطرفان شهوتيهما عبر أسلاك الهاتف، ثم تبدأ رحلة جديدة مع مجهول آخر في أمسية مغايرة.

انتهت أشهر العدة فأحسّت نشوى بأنها خرجت من نفق مظلم ظلّت فيه أمداً طويلاً. اعترفت لي بعد أن تبدّدت غيمة أحزانها، بأنها لم تكن تحبّ زوجها، وكانت تتمنّى في قرارة نفسها أن يُخلّصها الموت منه. كانت موقنة بينها وبين نفسها أن اللّه استجاب لأمنيتها الخفيّة، ولطالما خفّفت من حسرتها على أيام زواجها الآفلة بأنها لم تخرج خالية الوفاض، فقد حصلت على إرث جيد بالرغم من استحواذ زوجته الأولى وأولاده على الحصة الكبرى من الميراث. وقد شجّعها والدها على استثمار المال الذي ورثته في مشروع من المشاريع الناجحة في البلد، لكنها فضّلت استثمار جزء كبير منه في تجارة الأسهم. وعادت إلى سابق عهدها: كوّنت شلّة

جديدة تهوى مثلها السهر والسمر، وكنتُ كلما أبديتُ امتعاضي من تصرفاتها، تقول لي بدعابتها المعهودة:

ـ العمر يا صديقتي أقصر من أن نهدره في النوم. سيأتي يوم علينا ننام فيه طويلاً!

ثم تطلق ضحكاتها المجلجلة في أرجاء المكان.

مرّ على وفاة زوجها حوالى عام. كانت تتسوق في أحد المراكز التجارية الكبرى، عندما لحقها شاب وهي تهمّ بدخول السيارة. رمى ورقة مطوية في حجرها، مدوّناً فيها رقم هاتفه واسمه الأول. حشرتها على عجل في حقيبة يدها قبل أن يلاحظها السائق. كان ربيع مقارباً لسنّها، في حوالى السادسة والعشرين. وسيم الملامح، له إطلالة رجولية لافتة، وابتسامة ساحرة، وعينان عميقتان نفّاذتان. سرعان ما انجذبت نشوى نحوه، تسهر معه ساعات على الهاتف. حاول استثارة غرائزها حتى ترضخ له وتلتقيه في شقته، لكنها كانت تصرّ في كل مرة على ملاقاته نهاراً في واحدة من «الكافتيريات» المنتشرة في الفنادق الكبرى. وضعت نصب عينيها أن تتزوج هذا الرجل، وحققت رغبتها فعلاً بعد مرور أشهر قليلة على تعارفهما. ملأها الغرور عندما وصل إلى مسمعها الهمس الدائر حولها بأنها امرأة محظوظة، لأنها نجحت في الحصول على ثروة ضخمة بزواجها برجل مسنّ، لتتمتع بها بعد فترة وجيزة مع شاب مقارب لسنّها لم يسبق له الزواج من قبل. كانت مسحورة بربيع، بكلامه المنمق، وأحاديثه الشائقة، حتى سيطر عليها سيطرة كاملة، واستطاع بعد فترة قصيرة من زواجهما

أن يقنعها بفتح مؤسسة للتصدير والاستيراد. استجابت لطلبه وقام بتقديم استقالته من البنك الذي كان يعمل فيه ليتفرغ لإدارتها. حررت له شيكات بآلاف الريالات. وكان والدها يراقب تصرفات زوج ابنته بقلق. ونصحها مراراً بأن تكون أكثر حرصاً على مالها. أبدت ضيقها وامتعاضها من ملاحظته المتكررة، متعلّلة بوجوب وجود ثقة متبادلة بين الزوجين. كانت تشعر بأنها وجدت سعادتها الحقيقية أخيراً مع الرجل الذي كانت تحلم به. لكن، سرعان ما تكدّرت حياتها فجأة حين علمت أن والدها مصاب بسرطان المثانة، وانشغلت بمرضه. ساءت حالته وتمّ نقله للعلاج في الخارج على نفقة الدولة. استأذنت نشوى زوجها في اصطحاب أبيها وأمها، إلا أن أباها لم يصمد طويلاً أمام المرض ومات في الغربة بعد عدة أشهر قضاها في معاناة شديدة. عادت متوشّحة بوشاح الأسى على فراقه، ولم تفق من آلامها حتى عاجلها القدر بضربة ثانية بموت والدتها إثر سكتة قلبية بعد أقل من شهر على وفاة والدها.

هزّت هذه الأحداث المفجعة نشوى، وقوّضتها من الصميم. أحسّت بأنها غدت وحيدة في الحياة خاصة أن علاقتها بأخيها لم تكن متينة، فقد كان هشّ الشخصية، غارقاً طوال الوقت في مستنقع مشاكله العائلية ونزواته الخاصة، محاولاً التلاعب بإرث والدهما لمصلحته، مما أدى إلى حدوث القطيعة بينهما، ودفعها إلى التشبث بزوجها أكثر، والانسياق خلف مطالبه بلا تفكير. اقترح عليها ربيع بعد أسابيع قليلة أن تمنحه توكيلاً عاماً لإدارة أملاكها كافة بما فيها تلك التي ورثتها عن أبيها. ردّت عليه بأنها

كانت تفكر جدياً في هذا الأمر، حيث بات عالم الأرقام والحسابات يسبب لها الصداع. وتمَّ له ما أراد، وصار كثير الأسفار لكي يوقع الصفقات، وقوي في خلال سنوات قليلة مركز مؤسسته في السوق. التهت نشوى طوال هذه الفترة في زيارة عيادات الأطباء لمعرفة السبب في عدم إنجابها. وكانت الإجابة دوماً أن كل شيء طبيعي، وأن إرادة اللَّه لم تُكتب بعد. فجأة تغيّرت معاملة ربيع لنشوى، لم يعد يُسمعها كلمات الحب التي كان يغدقها عليها في السابق، وصار يدخل البيت دوماً متجهماً، ويجلس صامتاً، وكلما عاتبته مبدية تذمّرها من البقاء وحيدة طوال الوقت، يُلقي اللوم عليها، ويؤنبها لأنها لا تحسّ بثقل المسؤوليات الملقاة على عاتقه، وبمدى ما يتعرض له من متاعب في سبيل المحافظة على مالها. ويمنّنها دائماً بأنه لم يمنعها يوماً من التزاور مع صديقاتها ومعارفها، وأعطاها مطلق الحرّية لثقته بها، وكانت تردّ عليه بعتاب، بأن صديقاتها لن يعوضنها عن غيابه، وأنها صارت تفتقده كثيراً.

جاءتها يوماً مكالمة هاتفية من سيدة مجهولة، تخبرها أن زوجها تزوج عليها بامرأة جزائرية، تعرّف إليها في واحد من أسفاره الكثيرة إلى باريس. كانت تعمل بائعة في أحد محالّ الملابس المنتشرة في «الشانزليزيه»، وأنجبت منه طفلة، وقد أسّس لها بيتاً في جدة وسيأتي بها لتستقرّ معه هنا. أقفلت سماعة الهاتف وغليان من الثورة والغضب يتأجج في أعماقها. ظلّت تنتظره في غرفة الجلوس حتّى عاد في ساعة متأخرة من الليل. فوجئ عند دخوله بهيئتها ونظراتها النارية المنبثة من عينيها، سألها بدهشة:

ـ ماذا هناك؟!

حدجته بطرف عينيها قائلة بلهجة حادة ونبراتها ترتجف:

ـ هل تزوجت عليّ؟!

باغته السؤال، وارتسمت على محياه تعابير ممزوجة بالحيرة والتوتر معلقاً:

ـ ما هذا الهراء. أنا تعب وليس لدي رغبة في الشجار.

أجابته باستخفاف:

ـ أنت إما تعب أو غائب!!

أدار ظهره عنها متجهاً صوب غرفة النوم. شدّته من إزاره من الخلف. حوّل وجهه ناحيتها، هوى بكفّه على صدغها، صرخت قائلة:

ـ أريد الحقيقة الآن، هل نسيت أنني التي صنعتك؟

عاد مجدداً إلى صفعها صارخاً:

ـ لقد مللتكِ. سئمتُ شكواكِ طوال الوقت. نعم، لقد تزوجت إنسانة تُشعرني طوال الوقت بأنها بحاجة إليّ ولستُ صنيع مالها.

قاطعته:

ـ أين كانت هذه الأخلاق النبيلة يوم مثّلت عليّ دور المحب الولهان لكي أسلّمك كل ما أملك؟! أم إن تخمة الشبع حرّكت نزعة الرجولة في داخلك!!

ـ اسمعي، لن أسمح لك بتجريحي بعد اليوم. لم أعد بحاجة إليك. أنت طالق، طالق، طالق!

دفعته خارج البيت، مردّدة:

ـ اخرج من بيتي يا جبان، يا حقير.

عمّ الهدوء في ثوان أرجاء المكان. جلست تبكي بحرقة. كانت ملامحها اليائسة تدعو إلى الشفقة. كل همّها منصبّ في لملمة كرامتها المجروحة!! ألقت نظرة عابرة على نفسها بالمرآة المعلقة على الجدار. أصابها الهلع من هيئتها. تساءلت: ألهذا الحد تسرق فواجعُنا نضارةَ وجوهنا؟! كيف يمكن بين يوم وليلة أن تنقلب الدائرة علينا؟! لماذا باعني بثمن بخس؟ هل قدري أن تتعلق خيوط حياتي برجلين: رجل لم أجد نفسي معه، ورجل وجد نفسه مع امرأة غيري؟! هل على المرأة أن تتعامل مع الرجل بعينين مفتوحتين لا تعرفان النوم حتّى لا يستغلّ عواطفها ويلتهم سذاجتها، ولا يكرر على مسمعها أن القانون لا يحمي المغفلات؟!

اكتشفت أن ربيع باع أملاكها كافة التي ورثتها عن زوجها السابق وعن والدها بالتوكيل العام الذي معه. لم يترك لها سوى الفيلا الصغيرة التي تقطن فيها. وبّخت نفسها: كم كنتُ بلهاء!! كيف سلّمتُ له كل شيء!! هل أخطأتُ حين منحته ثقتي؟! لاح أمامها مستقبلها المظلم، دبّ الخوف في قلبها. كيف ستعيش؟! فهي لا تملك سوى شهادة الثانوية، ومجموعة من المجوهرات؟! غبية من تثق برجل!! صارت تغلي في أعماقها براكين من السخط والنقمة عليه. طافت في عينيها غمامة من السواد، ولم تعد ترى سوى صورة قاتمة لغدها. لكنها تكابرت على وجعها، أخذت تردّد

بعزيمة قوية: لن أموت. سأعيش، أجل سأعيش. أنا امرأة قادرة على التنفس تحت الماء. لن أسمح لرجل بعد اليوم بأن يسلبني فؤادي. سأظلّ ما حييت امرأة عاشقة للحياة.

* * *

أطلقت غادة عند هذا المنعطف زفرة حارة، ومسحت بباطن كفّيها دموعها المنحدرة على وجنتيها. كان الفجر قد لاح وبدأت خيوطه تتسلّل ببطء من ستارة النافذة، وتقتحم زقزقة العصافير جدران الصمت الموجع معلنة قدوم يوم جديد ما زالت تفاصيله في علم الغيب. طوت دفّتَي سجل ذكرياتها. أعادته إلى مخبئه الآمن. توجّهت صوب النافذة، أزاحت طرف الستارة، أخذت تتأمل الفضاء الواسع. انزلقت عيناها تجاه الحديقة. لمحت غرفة زيد. تحرّكت شجونها. لمحت العمّ محمود حارس البيت الأثيوبي. كان ممسكاً بخرطوم الماء ليسقي الزرع. تنهّدت من أعماقها: شتان ما بين الأمس واليوم. بدأت أطياف النوم تداعب جفنيها. ارتمت على سريرها. دفنت جسدها تحت اللحاف، وراحت في سبات عميق.

(٣)

عُيِّنت غادة بعد تخرّجها في واحدة من مدارس المرحلة الإعدادية الحكومية. أصبحت مسؤولة عن المكتبة المدرسية. تبدأ يومها بالاستيقاظ باكراً في السادسة والنصف. يرنّ جرس الحصة الأولى في السابعة والنصف، وتستمر في عملها حتى الثانية. تحط قدميها في البيت حوالى الثانية والنصف بعد الظهر. تصل منهكة، متعبة، تتناول طعام الغداء مع والدتها وتُحدّثها بإسهاب عن تفاصيل يومها ثم تأخذ قيلولة حتى الخامسة، تخرج بعدها لقضاء لوازمها أو تقبع في البيت أمام التلفاز، وتنفرد ليلاً في غرفتها تُطالع كتاباً. كانت في قرارة نفسها تكره مناخ المدارس، وزادت من كرهها له العراقيل التي تصادفها في محيط عملها مما سَبّب لها إحباطات متوالية. كانت إدارة الرئاسة العامة لتعليم البنات تصدر تعاميم تكاد تكون شبه يومية لإلغاء كتب من قوائم المكتبة حتّى وصل الأمر إلى سحب الكثير من كتب التراث بحجة أن مضامينها ستؤثر سلباً في الطالبات. وعندما احتجّت لدى مديرة المدرسة على هذا التحجيم الفكري، ردّت عليها قائلة:

ـ اسمعي، نحن هنا مجرّد موظفات، واعتراضاتك لن تفيد.

الأفضل أن تلتزمي التعليمات التي تتلقّينها لكي لا ترسل إليك الإدارة خطاب لفت نظر.

فوجئت غادة بمديرة المدرسة تؤنّبها. هل كان عليها أن تسكت على سلبها حقها؟ قالت:

ـ كيف يمكن للطالبات أن يميزن الغَثّ من السمين إذا منعنا الفكر من الوصول إلى عقولهن!! إن حجب تراثنا عن الأجيال الصاعدة سيجعلها تفقد الثقة بموروثات أجدادها الذين بنوا هذه الحضارة العظيمة.

ـ هذه الشعارات لا مكان لها هنا.

تعوّدت غادة مع مرور الوقت هذا الجوّ الخانق، وصارت تستجيب لأوامر المصادرة والمنع في صمت، وبدأت تجثم على صدرها كتلٌ من الضجر من هذه الحياة الروتينية. حاولت تكوين صداقات في مجال العمل لكنها لم تستطع الاندماج مع زميلاتها. كان لهن عالمهن الخاص المختلف جذرياً عن عالمها. تقضي بعضهن وقت الفسحة في التحدث عن مشاكلهن الزوجية، ومعاناتهن مع أبنائهن، وتسرد الأخريات أخبار آخر العرسان الذين تقدّموا لهن مع شكوى مستمرة من حياة العزوبية وتعطشهن إلى الاستقرار الأسري، وأحدث الطبخات وكتب الطهو التي صدرت أخيراً. وكانت هذه الحكايات تجلب لغادة الملل فتكتفي بالإنصات من دون أن تُشارك أو تُعلّق على أي من مواضيعهن.

استمرّت غادة تعمل في المدرسة ما يُقارب الأربع سنوات، تقدّم لها خلالها عدد من العرسان ورفضتهم كالمعتاد. وكلما

انتهت القصة برفض العريس مثل سابقيه كانت والدتها تنفرد في غرفتها وتبكي، بينما يثور والدها ويهدّد، متوعّداً مثل كل مرة بأنه سيجبرها على الزواج نهاية الأمر، ثم ما تلبث أن تهدأ انفعالاته، ويتراجع عن تهديداته. صارت في هذه الآونة تلحّ عليها بشدة فكرة العمل في الصحافة. وعندما فاتحت والدها برغبتها في تقديم استقالتها، هبَّ في وجهها وأرغى وأزبد منبّهاً إياها إلى أنها ستخسر كثيراً إذا تركت وظيفة الحكومة، مقسماً بأغلظ الأيمان إنه لن يسعى إلى مساعدتها في أي أمر يخصها بعد اليوم، لكنها لم تذعن لنصيحته ولم تلتفت إلى تحذيراته. كان حبّها لهذا العالم يلاحقها بشدة، وقررت بينها وبين نفسها أن تلجأ إلى صديقتها نشوى، فهي الوحيدة التي تستطيع تحقيق حلمها. وعزمت على أن تقوم بزيارتها.

* * *

تقع فيلا نشوى في حيّ الحمراء؛ أرقى أحياء مدينة جدة. تشير الساعة إلى الثالثة عصراً. كان الطقس معتدلاً مع حلول شهر ديسمبر. جلست غادة ونشوى في الحديقة تتناولان طعام الغداء وقد ملأت رائحة الشواء أجواء المكان، بينما تقوم الخادمة الفلبينية بخدمتهما. كانتا قد فرغتا من تناول الطعام وبدأتا تحتسيان الشاي عندما قالت نشوى لصديقتها بنبرة مرحة:

ـ والآن اعترفي، هناك بالتأكيد أمر يشغل بالك. أنا أعرفك جيداً، فأنت صديقة طفولتي. إن ملامح القلق مرسومة على محياك.

ـ بلا مقدمات، أودّ العمل في الصحافة، وأريدك أن تساعديني. لقد طرقت أبواب الكثير من الصحف لكنني لم أتلقَّ رداً من أي منها. كل ما سمعته مجرّد وعود.

أطلقت نشوى ضحكة طويلة قائلة:

ـ صحافة!! هل تعنين ما تقولين؟! لماذا تجلبين لنفسك وجع الرأس؟! هذا عالم صاخب يا صديقتي، يزخر بالشخصيات المتناقضة. كيف يمكنك التعامل مع هذه الدنيا المخبولة وأنت الفتاة الرقيقة؟ آه يا صديقتي، كم أخاف وأشفق عليك من هذا العالم!!

ـ أنت تعلمين مدى عشقي لعالم القراءة والكتابة منذ طفولتي. أمنيتي أن أصبح صحافية مشهورة يوماً ما.

ردّت نشوى بسخرية:

ـ اعذريني، لم أسمع طوال عمري عن صحافية سعودية ذاع صيتها في الآفاق. أنت يا صغيرتي تعيشين في بلد مكبّل بقيود اجتماعية كثيرة، وهي بالتأكيد ستعيق طموحاتك. ولا تنسي أن مجتمعك يطفح بالذكورية.

ـ قد يكون في كلامك الكثير من الصحة. صحيح أن حقوق المرأة مدجنة في مجتمعنا السعودي نتيجة العادات والتقاليد التي توارثناها، لكن ألا تتفقين معي على أننا يجب أن نسعى إلى تحطيم هذه القيود بدلاً من الاستسلام لها؟!

ـ على رسلك يا غادة، أنت متحمسة أكثر من اللازم. وهل أنتِ التي ستحطمين الأغلال بقوة عضلاتك «الشمشونية»؟!

ـ خذي كلامي على محمل الجد وسأثبت لك خطأ نظرتك. إنني قادرة على مواجهة العالم بأسره من أجل تحقيق حلمي. سأثبت لك أن المرأة قادرة على تثبيت قدميها في هذا الطريق الوعر، ما دامت تملك الإرادة والتصميم والعزيمة.

تنهّدت نشوى قائلة:

ـ حسناً يا صديقتي، أي جريدة ترغبين في العمل فيها؟!

ـ هكذا بكل سهولة؟!

ابتسمت معلّقة:

ـ هناك عدد من الصحافيين والكُتّاب الكبار يوجدون من حين إلى آخر في السهرات الخاصة التي أحضرها. ثقي وتأكدي أن المرأة التي تنجح في مدّ جسور متينة مع أشخاص من الوسط الإعلامي تستطيع فتح الأبواب المستعصية كافة.

ثم برقت عيناها فجأة معقّبة:

ـ اسمعي، سوف يقيم شخص له مكانة اجتماعية مرموقة في نهاية هذا الأسبوع حفلة كبيرة سيحضرها بالطبع عدد من وجهاء القوم. ما رأيك في أن تذهبي معي. هذه فرصة لك، وأنا واثقة بأن جميع الحاضرين سيقعون صرعى جمالك!

ـ أنت تعلمين جيداً أن هذا الطريق لم يكن هدفي يوماً. كل ما أطلبه منك أن تعديني بأن تساعديني.

ابتسمت نشوى. نظرت إلى صديقتها بحنوّ. قررت أن تفعل المستحيل من أجلها. كانت تدرك جيداً حجم الألم الذي تجرّعته غادة بعد التجربة القاسية التي مرّت بها في طفولتها، وكثيراً ما

حثّتها على وجوب نسيان هذا الماضي، والتفكير في حياتها المقبلة، ولكن غادة كانت تردّد على مسمعها أن زيداً هو الرجل الذي فتق ستار أنوثتها، ومن الصعب أن تمحو آثار بصماته بسهولة من وجدانها. لقد رحل وأخذ معه طفولتها وحاضرها ومستقبلها، ولم يعد يهمّها إلا بناء حلمها الكبير.

* * *

هاتفت نشوى صديقتَها بعد أسبوع تقريباً من لقائهما. قالت لها بمرح:

ـ مبروك، بإمكانك غداً الذهاب إلى جريدة «المرايا». لديك مقابلة شخصية مع رئيسة القسم النسائي.

صاحت غادة فرحاً:

ـ جريدة «المرايا»!! لا أصدق. إنها أكبر جريدة في السعودية. هذا أكثر مما كنت أتوقع!! هل تعرفين رئيس تحريرها؟!

علّقت نشوى قائلة:

ـ لا، لكنني أعرف شخصاً له ثقل اجتماعي ومادي كبير، وتربطه صلة قوية برئيس التحرير، ولم يتعود أن يرفض له طلباً. لا أريدك أن ترتبكي في المقابلة الشخصية. كلها أمور شكلية. يجب أن تعلمي أن قرار توظيفك قد وُقِّع من رئيس التحرير.

* * *

أمضت غادة شطراً كبيراً من الليل ساهرة. يكاد قلبها يقفز من بين ضلوعها من السعادة. عند العاشرة صباحاً، وقفت أمام المرآة

تُصلح من هندامها. اختارت تنورة كحلية اللون وبلوزة قُطنية مُقلّمة بالأبيض والكحلي. عقصت شعرها عند مؤخرة رأسها. حرصت قبل خروجها على تقبيل أمها راجية إياها أن تكثر من دعواتها لها، فهي بحاجة ماسّة إليها اليوم.. وهرولت إلى الخارج.

* * *

واضح أن مبنى القسم النسائي للجريدة مستحدث، مستقل عن المبنى الرئيسي وله بوابة خاصة، ومحاط بسور واحد. عُلقت على مدخله لائحة كبيرة كُتب عليها «القسم النسائي». أوقف السائق السيارة ودلفت غادة إلى داخل المبنى. طافت بعينيها في أرجاء المكان: بهو واسع بأرضية رخامية رمادية اللون تتوسطه سجادة إيرانية الصنع على شكل بيضوي، وقد صُفّت عدة مقاعد عند الناحية اليسرى من المدخل. يتألف القسم من ثلاث غرف: الأولى مكتوب على بابها «رئيسة القسم»، وكانت مغلقة؛ والثانية مساحتها صغيرة فيها آلتان كبيرتان، واحدة لتصوير الأوراق والأخرى فاكس متصلة أسلاكه بالهاتف، ودولاب معدني كبير؛ والغرفة الأخيرة كبيرة المساحة، مكتوب على بابها «هيئة التحرير»، في داخلها أربعة مكاتب أنيقة، تجلس خلفهن فتيات في مقتبل العمر، تمسك إحداهن بمرآة صغيرة، كانت منهمكة في تجميل وجهها، وقد رصت مجموعة من المساحيق أمامها. والثلاث الباقيات منهمكات في الحديث وقد اختلطت أصواتهن. ألقت غادة السلام، فتوقفن عن الكلام. وجّهت إحداهن السؤال إليها:

ـ تفضلي، هل من خدمة نؤديها لك؟!

ـ أريد مقابلة السيدة فوزية.

ـ هل لديك موعد معها؟!

ـ نعم.

ـ استريحي، إنها قادمة في الطريق. ماذا تحبّين أن تشربي؟! قهوة، شاي، نسكافيه.

ـ شكراً، لا شيء.

قالت لها الفتاة التي كانت مشغولة بوضع المساحيق على وجهها ثم دسّتها في درج مكتبها لحظة دخول غادة:

ـ اسمي تغريد، وأشارت بيدها إلى رفيقاتها، وهذه أمل، وتلك منى والأخيرة عواطف.

أومأت غادة برأسها قائلة:

ـ تشرفت بلقائكن، اسمي غادة عبد الحي.

قالت أمل:

ـ أنت الفتاة الجديدة التي تمّ تعيينها أخيراً، أليس كذلك؟!

ـ نعم، أنا هي.

علّقت تغريد ضاحكة:

ـ يظهر أن واسطتك قوية. لم تُعيّنْ من قبل فتاة قبل إجراء مقابلة شخصية معها ومعرفة خلفيتها المهنية.

طلبت إليها أن تسكت معلقة:

ـ لا فائدة فيك، دوماً مسحوبة من لسانك. دعي الخلق للخالق.

ابتسمت غادة ابتسامة خفيفة من دون أن تُعلّق.

دخلت رئيسة القسم. سيدة في الأربعين، ممتلئة الجسد، دكناء البشرة، ملامح وجهها عادية وإن كانت توحي القسوة والجمود. ألقت السلام ونظرت نظرة سريعة إلى غادة ثم دلفت إلى غرفتها. قامت أمل وهمست في أذن رئيستها، فنادت السيدة فوزية غادة طالبة إليها أن تتفضّل إلى مكتبها.

تمعّنت فيها السيدة فوزية قائلة:

ـ إذاً، أنت غادة أحمد عبد الحي!!

أومأت غادة بالإيجاب.

استفسرت منها إن كانت لديها خبرة صحافية سابقة، وسألتها بعض المعلومات العامة، وأخبرتها بعد مرور نصف ساعة أن بإمكانها الانصراف على أن تُحضر لها نسخة مصورة من شهادة تخرّجها ومن بطاقة العائلة مع خطاب من وليّ أمرها يوضح فيه موافقته على عملها في الجريدة.

سألتها غادة:

ـ هل من الضروري خطاب وليّ الأمر؟! ألا ترين أنه قرار يخصّني وحدي؟!

قطبت السيدة فوزية حاجبيها معلقة بحدّة:

ـ أخت غادة، أودّ أن أذكّرك بأنك تعيشين في مجتمع محافظ. أعتقد أن هذه الإجابة كافية للرد على سؤالك!!

ـ حسناً، متى أستطيع مباشرة عملي؟!

ـ بداية الأسبوع المقبل، ولا تنسي إحضار الأوراق المطلوبة.

خرجت غادة من مبنى الجريدة وهي تكاد تطير من الفرحة. طلبت إلى السائق أن يُعرّج بها على بيت صديقتها نشوى. كانت تريد أن تعبّر لصديقتها عن امتنانها لما قامت به من أجلها. أخبرتها الخادمة أن سيدتها لن تستيقظ قبل الثانية ظهراً. قفلت راجعة إلى البيت، وجلست تقصّ على والدتها بالتفصيل كل ما جرى. نظرت الأم بحنان إلى ابنتها وقلبها يدعو لها بالتوفيق في عملها الجديد.

* * *

ذهبت غادة لزيارة والدها لإعلامه بعزمها ترك عملها في المدرسة، ولكي تأخذ منه خطاب الموافقة. كرر على مسمعها العبارات نفسها بأنها ستندم على ترك وظيفة حكومية مضمونة من أجل حلم عائم لا مستقبل مضموناً له!! رجته أن يقف إلى جانبها ووعدته بأنها ستتحمل تبعات قرارها مهما كانت عواقبه. طمأنته إلى أنها ستأخذ في البداية إجازة من دون راتب من عملها لمدة ثلاثة أشهر وتعتبرها فترة اختبار لنفسها وقدراتها. ارتاح والدها إلى هذا الاقتراح وكتب لها خطاب الموافقة. وما إن تناولته حتّى تنفّست الصعداء. لكنها كانت ناقمة بينها وبين نفسها على هذه الإجراءات، متمنّية لو كانت تملك حق تقرير مصيرها في كل ما يخصّ حياتها. كانت حائرة: لماذا تظلّ تطلعات المرأة معلقة بجرّة قلم من الآباء والأزواج؟! هل يمثل هذا وجهاً من وجوه العدالة الاجتماعية؟! لماذا يصرّ مجتمعنا على أن يُنصّب نفسه حاكماً على طموحاتنا؟؟ لماذا يكبّلنا بكل هذه القيود ولا يدع لنا الفرصة لكي

نتنفّس بحرّية، ونقع ونقف ونعاود تكرار المحاولة مرة بعد المرة حتى نضع أيدينا على ما نريده بقناعة ذاتية؟!

* * *

كان أول تحقيق قامت به غادة عن أهمية التنسيق المباشر بين الجامعات والمعاهد من جهة، ومتطلبات سوق العمل من جهة أخرى، والتأكيد على وجوب فتح قنوات حوارية بين الأطراف كافة، حتى يمكن تلافي فائض الخرّيجين مستقبلاً، وبالتالي تحاشي البطالة المقنّعة على المدى البعيد. جمعت معظم مواد التحقيق عبر الفاكس، وقامت بإرسال أسئلتها إلى أساتذة الجامعات الذين اختارتهم للمشاركة. وعندما فرغت منه قدّمته وهي مغتبطة إلى رئيستها. أظهرت الأخيرة ضِيقها لعدم استضافتها أكاديميات من الجنس النسوي، ولفتت انتباهها إلى وجوب أخذ رأي المرأة لأنها تمثّل نصف المجتمع. كان رأيها صائباً، لكن غادة برّرت سبب هذا القصور بأنها لم تلقَ ترحيباً من جانبهن، بل كنَّ متحفظات جداً معها.

ردّت فوزية:

ـ كان من الممكن أن تكرري المحاولة. من صفات الصحافي الناجح الإلحاح للحصول على المعلومة. على كل حال، سأعتمد موضوعك هذه المرة على أن تتفادي هذه الغلطة في تحقيقك المقبل. كما أن التحقيق طويل وسأضطر إلى حذف فقرات منه لأننا مقيدات بمساحة معيّنة.

ـ لكن الحذف سيُضعف التحقيق. لماذا لا يُنشر على جزءين في يومين متتاليين؟!

ـ سأتشاور مع رئيس التحرير حول هذا الاقتراح.

خرجت غادة من مكتب رئيسة القسم متكدّرة من نقدها اللاذع، وظهرت على محياها تعابير الضيق!!

سألتها أمل:

ـ ماذا بكِ؟!

ـ كنت أنتظر من السيدة فوزية كلمة تشجيع لا تقريع بعد كل المجهود المضني الذي بذلته على مدى شهر. ما ذنبي إذا تقاعس الجانب النسوي عن المشاركة في التحقيق؟!

علّقت تغريد بدعابتها المعهودة:

ـ هكذا نحن النساء، نُقيم الدنيا ولا نُقعدها على الرجال، لكننا عند المواجهة نُفضّل التعامل معهم على تعاملنا مع بعضنا.

ردّت غادة:

ـ هل لديكن أسباب مباشرة لعزوف المرأة عن التعامل مع امرأة مثلها؟!

أجابت منى:

ـ أنا لديّ تفسير مقنع. إنه يعود إلى طابع الغيرة الذي نتصف به نحن النساء. إننا نشتعل غيرة إذا برزت واحدة منا في مجال ما، أو تبوّأت مكانة معيّنة، أو اقترنت بزوج غني، وننصب لها محاكمة نُعرّي فيها مساوئها ونفضح خباياها!!

اشتركت عواطف في الحديث قائلة:

ـ لا تنسينَ أن الرجل يميل إلى التعامل مع المرأة ويقدم إليها الكثير من الخدمات، خاصة إذا كانت جميلة، كما أن المرأة تفضّل التعامل مع الرجل لإدراكها، بحاسة الأنثى، أنه لن يستطيع أن يقاوم أسلحتها الفتاكة!! إنها غريزة فطرية لدى الطرفين.

قالت منى بسخرية:

ـ ينظر الرجال مهما علت مناصبهم في كل بقاع الدنيا إلى المرأة على أنها فريسة يجب الانقضاض عليها في اللحظة المناسبة.

أجابت غادة:

ـ هذه كلها أحكام مغرضة تمّ نشرها في مجتمعاتنا العربية للحطّ من مكانة المرأة، حتّى أصبحت بمرور الوقت من المسلّمات. الحاصل اليوم ما هو إلاّ نتيجة حتمية لما يجري تلقينه عبر المؤسسات التربوية والتعليمية، ويتمّ ترديده صباحاً ومساءً في قنواتنا الإعلامية، لذلك تجب إعادة النظر في هذه المفاهيم حتّى تستطيع المرأة أن تشق طريقها بثقة في مجتمعها.

سمعن وقع خطى فوزية، فكففن عن الحديث، وانشغلت كل واحدة بتقليب الأوراق التي أمامها.

* * *

وافق رئيس التحرير على نشر التحقيق على جزءين لأهمية طرحه، وأرسلت إدارة الجامعة إلى غادة خطاب شكر عن تحقيقها المتميز. لكن الصدام الذي وقع بين غادة ورئيستها جعلها تدرك أن هذا العالم السحري الذي كانت تحلم به في صغرها، مخيف

بمقدار ما هو ممتع، وفيه الكثير من الخبايا والصراعات الخفية. وتكوّنت لديها مع الوقت قناعة ذاتية بأن نشوى على حق في رأيها في الصحافة. لكن طعم النجاح حفّزها على أن تتشبث أكثر ببناء مستقبلها الصحافي، لإيمانها بأن لكل شيء ثمناً في الحياة... فكيف إذا كان هذا الشيء حلمها الكبير!!

(٤)

دار في القسم حديث بين الصحافيات عن تعيين الدكتور طلال السعدي نائبَ رئيس تحرير جديداً للجريدة بعد استقالة النائب السابق لظروفه الصحية. وطلال السعدي من أشهر الشعراء في الساحة الأدبية السعودية. وسيم، في منتصف عقده الثالث، مطلّق، وحاولت كثيرات من معجباته رمي شباكهن حوله لكن محاولاتهن باءت بالفشل.

تسرّب إلى أعماق غادة شيء من الفضول تجاه هذه الشخصية وهي تستمع إلى حكايا زميلاتها عنه. أهمّ ما لفت انتباهها ما وصل إلى مسمعها عن تحمّسه الدائم للأطروحات الجديدة، خاصة المتعلقة بقضايا الشباب. كانت غادة قد بدأت في التحضير لإجراء تحقيق شامل عن دور البنوك الوطنية في دعم المشاريع الصغيرة للشباب، ورأت أن تأخذ إذناً مُسبقاً منه. جمعت معلومات خاصة عنه. حصلت أولاً على رقمه المباشر، الأوقات المناسبة للتحدث معه، والساعة التي يحضر فيها إلى مكتبه، وموعد انصرافه. وأحسّت عندما أدارت قرص الهاتف واخترق صوته أذنيها لأول مرة، كأن همساً ملائكياً لم تسمعه منذ أمد بعيد يتسرب إليها. كانت تطفح نبراته الرخيمة برجولة متوقّدة.

ـ صباح الخير دكتور طلال.

ـ صباح النور.

ـ أنا غادة عبد الحيّ، صحافية من القسم النسائي.

ـ أهلاً يا أخت غادة، أتابع تحقيقاتك الجميلة. أنت إضافة مميزة إلى جريدتنا.

ـ أشكرك على مجاملتك اللطيفة. لن آخذ من وقتك الكثير. الحقيقة أنني أودّ التحدّث معك حول موضوع أرغب في طرحه. أنا أعلم مدى اهتمامك بقضايا الشباب، وأودّ الحصول على موافقتك لإجراء تحقيق حول تقاعس البنوك الكبرى عن تقديم تسهيلات بنكية لمشاريع الشباب، في الوقت الذي تُقدم فيه مليارات الريالات لرجال الأعمال الكبار في البلد.

ـ موضوعك مهم، لكنه يحتاج إلى تغطية ميدانية واسعة.

ـ اتصلت بك لهذا السبب. أطمع في أن ترشح صحافيين من المناطق الأخرى ليشاركوني فيه ويقوموا بتغطية الجانب الميداني، وإجراء حوارات مباشرة مع الشباب الذين دخلوا حديثاً عالم رجال الأعمال، وأقوم أنا بتغطية الجانب المتعلق بمديري البنوك لأخذ آرائهم حول هذه القضية الساخنة.

ـ حسناً يا أخت غادة، لكن ثمة سؤالاً عندي: هل عرضت الموضوع على رئيستك؟!

صمتت برهة ثم قالت:

ـ بصراحة لا، وهذا يعود إلى وجود اختلاف في وجهات النظر بيننا في الكثير من الأمور.

ـ هل من الممكن أن تعطيني فكرة موجزة عن طبيعة هذا الخلاف؟!

ـ نختلف أحياناً حول نوعية التحقيق، وأحياناً أخرى بسبب موعد النشر، وأحياناً ثالثة حول طريقة نشره.

ـ على العموم يا أخت غادة، بابي دوماً مفتوح للصحافيات المتحمّسات من أمثالك.

وضعت غادة سماعة الهاتف وقلبها يخفق من الفرحة. شعرت تلك اللحظة بأحاسيس دافئة تتدفّق في أعماقها، طردتها بقسوة من تفكيرها قائلة بنبرة صارمة: «اهدأ يا قلب، كفاك ما عانيته». لم تكن ترغب في أن تعذب نفسها بعد أن ظلّت أمداً طويلاً تداوي جراح الماضي، رفضت بشدة بينها وبين نفسها أن تُلصق مشاعرها بصفحة رجل مثل طلال السعدي؛ صحافي وشاعر بارز، ومستهدف من النساء ومحط أنظارهن.

* * *

انهمكت غادة في التحقيق. تخرج من البيت حوالى التاسعة صباحاً، تلتقي ببعض مدراء البنوك الذين نجحت في أخذ مواعيد للقائهم، وترسل فاكسات إلى الذين عجزت عن الوصول إليهم. لاقت صعوبات كثيرة. هناك من كان يتهرّب منها ويُحوّل أسئلتها إلى موظف صغير لا يملك معلومات كاملة عن الموضوع؛ وهناك من كان يحاول إلقاء شباكه نحوها بأساليب مكشوفة؛ ومنهم من كان يمتنع عن مقابلتها ويهمل أسئلتها. إلاّ أن هذا الأمر زادها تصميماً على أن تستمر في تحقيقها بالصورة التي تراها. أكملت

تحقيقها بعد شهرين، ثم قامت بإرساله إلى طلال الذي أمر بتجميع المادة وإخراجها بطريقة مميزة.

اعترضت فوزية على تصرّف غادة، ودخلت في مشادة مع طلال السعدي مهدّدة إياه بأنها ستلجأ إلى رئيس التحرير ليضع حداً لأفعاله، واتهمته بأنه يقوم بتشجيع مرؤوسة على تجاوز رئيستها المباشرة. ردّ عليها:

ـ يستلزم واجبك تشجيع الكفاءات التي تعمل في القسم لا تحطيم معنوياتها. كما أحبّ أن ألفت انتباهك إلى أن متابعة التحقيقات من صلب عملي.

* * *

تشير الساعة إلى العاشرة مساءً. دلفت والدة غادة إلى غرفتها لتنام كعادتها في مثل هذا الوقت. كانت غادة ممدّدة على الأريكة في غرفة الجلوس، منهمكة في قراءة إحدى الروايات حين رنّ جرس الهاتف. عرفت صوت المتصل على الفور. كان طلال السعدي. امتزجت نبراتها بالفرحة والارتباك وهي ترحّب به.

ـ أنتِ بالتأكيد مندهشة لاتصالي. الحقيقة أنني أردت تهنئتك بنفسي على تحقيقك الجريء والمتميز في أسلوب طرحه.

ـ شكراً، الفضل يعود إليك. لولا التسهيلات التي قدّمتها إليّ لما استطعت إنجازه.

ـ أرجو ألاّ تكون مكالمتي في وقت غير مناسب!!

ـ لا أبداً، كنت أطالع كتاباً. أحبّ القراءة ليلاً.

ـ أنا أيضاً أفضّل القراءة ليلاً. ماذا كنت تطالعين؟!

ـ رواية «ثلاثة جنيهات» للكاتبة البريطانية فرجينيا وولف.

ـ أوه، إنها كاتبة موسوعية؛ أديبة وناقدة عظيمة، ولها مكانة كبيرة في بريطانيا. هل تعرفين أنها كانت امرأة مثلية؟!

ـ هذا لا ينفي عنها موهبتها. يؤسفني أن حياتها انتهت بهذه الطريقة المأسوية. أجمل ما لفت انتباهي عند قراءتي سيرتها الذاتية، تلك الرسالة التي خطّتها لزوجها تشكره فيها على وقوفه إلى جانبها في فترات مرضها. كم نفتقد هذا النوع من العلاقات السامية بين الرجل والمرأة في مجتمعاتنا العربية. من يقف وراء هذا التشوه في رأيك؟!

ـ أريد أولاً أن أصحح لك معلومة قد تكون غائبة عنك. لقد عشتُ في الغرب سنوات وأعرف الكثير عن مجتمعاته. ليس من السهل حتّى على الرجل الغربي أن يُلغي ذاته من أجل امرأة مهما كانت مكانتها عنده. زوج فرجينيا في رأيي حالة نادرة في كل مجتمعات الدنيا. كما لا يعني هذا أن الرجل العربي تنتفي عنه صفة الوفاء، وإنما يعود الأمر إلى التربية الخاطئة التي يتلقاها في البيت منذ نعومة أظفاره، ويؤدي إلى تضخيم «الأنا» لديه، وتنمية روح الأنانية في أعماقه.

ـ ألا ترى معي أن الإعلام ساهم هو الآخر في تثبيت هذه الصورة، من خلال حثّ المرأة على التغاضي عن حقوقها من أجل إرضاء الرجل، ولو كان فيه إجحاف لحقها الطبيعي في الحياة؟! تابع البرامج التلفزيونية، استمع إلى الإذاعة، ألقِ نظرة على محتوى الكتيّبات المنتشرة في الأسواق، تكتشفْ أن معظمها ساهم

في إفساد الرجل من خلال دفع المرأة إلى إنكار ذاتها، كأنها ليست آدمية لها مشاعر وطاقة محددة على الاحتمال، إلى أن أصبحت حقوقها تُنهَب أمام ناظريها وهي صامتة كي لا تُتهم بالتمرد والعصيان.

ـ أرى أنها فكرة جميلة لتحقيق قادم. فكّري في عناصره وسأساعدك على اختيار أسماء من الجنسين يمكن أخذ رأيها لإثراء موضوعك.

أخذ الحديث منحىً آخر. سألته عن ديوانه الأخير، ومتى سيظهر للنور. ثم تكلّما عن عالم الصحافة المليء بالإثارة والموضوعية، واختلافه جذرياً عن عالم الشعر الذي ينتمي إليه.

لم يشعرا بمرور الوقت. ظلاّ على الهاتف ما يقارب الساعتين، أنهى بعدها طلال المكالمة معتذراً لغادة عن أخذه الكثير من وقتها.

راحت غادة تسترجع تفاصيل حديثهما. كانت رياح الحيرة تعصف بفكرها، ومجموعة من التساؤلات تلحّ في ذهنها، وعلامة استفهام كبرى ترتسم أمامها: ماذا يريد مني طلال السعدي؟!

أزقة خلفية

(١)

ينتمي طلال السعدي إلى أسرة ثرية معروفة في جدة، كوّنت ثروتها من تجارة العطور والبخور وبيع الأقمشة الهندية المطرزة. كان والده يملك عدداً من الدكاكين في شارع قابل الذي كان يُعَد في ذلك الوقت أهم موقع تجاري، إلا أن وهجه بهت مع اتساع العمران فاكتفى بعدد من الدكاكين فيه، وبنى مركزاً كبيراً باسمه على طريق المدينة الذي بدأت تدبّ فيه الحركة التجارية.

طلال أصغر إخوته، جاء بعد أربعة أولاد وبنت، لذلك كان يحظى بتدليل واهتمام زائدين. وبعد أن شبَّ قليلاً صار والده حريصاً على أن يلازمه في مجالسه الأسبوعية، سواء تلك التي تُقام في بيتهم أم التي يقيمها التجار في منازلهم. كانت تنصبّ أحاديثهم حول أحوال التجارة وأخبار السفر والأوضاع الاقتصادية. لم يكن طلال يستوعب الأحاديث الدائرة لحداثة سنّه، فكان يغتنم الفرصة ويغافل والده ليتسلّل إلى حديقة منزل المضيف، ويقوم بقطف بعض الأزهار المزروعة بعناية حول سور البيت، أو الوقوف أمام نافورة المياه المصمَّمة بأسلوب فني متميّز كما هو مألوف في منازل الطبقة الثرية. شُغف طلال بلعبة كرة القدم وظلّ يمارسها مع أطفال

الحيّ إلى أن بلغ الخامسة عشرة، خبت بعدها اهتماماته الكروية كثيراً، واتجه ذهنه نحو عالم الشعر. قرأ كل دواوين الشعر القديمة والحديثة، وانبهر بشعر المتنبي وأبي نواس من القدماء، وتأثر بشعر المعاصرين من أمثال الأخطل الصغير وعمر أبو ريشة ونزار قباني. ثم بدأ ينشغل بعالم المرأة، فكان كلما اجتمع الأهل والأقارب في المناسبات العائلية والأعياد، يختلس النظر إلى قريباته، ويُميّز الممتلئة من النحيفة، الجميلة من القبيحة من خلف الأبواب المواربة، ويصفهن بأبيات شعرية من نظمه، يدسّها في مكتبه أو يمزقها لاحقاً. كانت لديهم جارية اسمها زبيبة، تكبر طلالاً بخمس سنوات، اشترى والده أمها في إحدى سفراته القديمة إلى جنوب أفريقيا حين كانت تزدهر تجارة الرق. كانت ماهرة في الطبخ وأعمال البيت فأوكل إليها والده رعاية ضيوفه الذين يفدون من كل حدب وصوب ويحلّون في بيتهم. تورطت في علاقة مع أحد زوّار أبيه من الذين استضافهم في موسم الحج، وأثمرت العلاقة عن حملها بزبيبة. وعندما طلب والده إلى الرجل إثبات أبوّته للطفلة أنكر الأمر، فأعلن منذ تلك اللحظة القطيعة معه. وُلدت زبيبة وتربت في بيتهم، وظلّت والدتها كسابق عهدها تخدم الجميع دون كلل، لكن ارتسمت بعد هذه الواقعة على وجهها أخاديد من الحزن، وكان يتفاقم كَمَدها كلما تطلعت إلى ابنتها. توفيت والدة زبيبة عند بلوغها عامها الخامس قبل ولادة طلال بأيام معدودة. زبيبة طفلة جميلة، يتجسّد لغزها الساحر في ذلك النداء الصارخ الذي يشعُّ دوماً من فصّي عينيها الرماديتين. ورثت عن والدتها شعرها الأكرت وبشرتها التي بلون الكاكاو. وبدأت تتفجر

أنوثتها عندما خطت نحو عامها الرابع عشر. برز نهداها، وأضحى لها جسد ممشوق ملفوف ومؤخرة كبيرة كتلك التي تتميّز بها النساء الأفريقيات. أعتق والد طلال زبيبة بعد القرار الذي أعلنه الملك فيصل عام ١٩٦٢ عندما كان ولياً للعهد، بوجوب عتق العبيد كافة في السعودية. خيّرها بين البقاء معهم أو العودة إلى بلدها، فردّت عليه بأنها لا تعرف لها أهلاً غيرهم، وتريد أن تبقى معهم. حرصت والدته على ادخار مبلغ شهري باسمها، وأصبحت زبيبة مسؤولة عن تنظيف البيت وتلبية احتياجات طلال. فكان يستحلي مناكفتها كلما صادفها أمامه فتهرع على إثرها تشكوه إلى والدته، فتوصيه بوجوب معاملة زبيبة معاملة حسنة.

كان طلال ذلك الصباح مستغرقاً في النوم، في عطلة نهاية الأسبوع. الساعة تقترب من الحادية عشرة. كل شيء صامت ما عدا صوت المحرك المنبعث من جهاز التكييف. دخلت زبيبة غرفته لتوقظه من النوم. والده في العمل، وإخوته في الخارج، ووالدته تتسوق بصحبة أخته. بدأت زبيبة تهز كتفه برفق. تعمّدت أن تميل بجسدها عليه. داعبت رائحة جسدها أنفه، أحسّ بحرارة أنفاسها، فتحرّكت رغبته الفتية. فتح جفنيه بتثاقل، قالت له بنبرة غنج مصحوبة بنظرات مغرية:

ـ لقد أمرتني والدتك بإيقاظك، وألا أدعك نائماً حتّى الظهيرة.

استشرف هيئتها بعينيه الناعستين. كانت فتحة ثوبها تُظهر مجرى هضبتيها. لأول مرة يلاحظ كم هي جميلة وفاتنة الملامح.

سألها عن والدته، فأخبرته أن الجميع في الخارج ولا يوجد سواهما في البيت. شجعه شعاع الرغبة الذي يطلّ من عينيها على التمادي معها، وجذبها بحركة لاإرادية من ذراعها. تمنّعت بدلال. دسَّ يديه برفق في فتحة ثوبها، وقبض على هضبتي صدرها. كانت تضطرم إثارةً ورقّةً. حررت شهوتها، ارتمت عليه. انفتحت أبواب شبقهما على مصاريعها. كان طلال قد أتم الخامسة عشرة من عمره حين تذوّق طعم امرأة لأول مرة في حياته. وظلّ مذاق زبيبة لصيقاً بذاكرته أمداً ليس بالقصير. وأصبحت زبيبة منذ تلك اللحظة تأتيه ليلاً، يسبقها فحيح أنفاسها بجسد يتلوى شبقاً، وتدفن جسدها الدافئ بجواره في الفراش ثم تنسلّ عند الفجر.

* * *

حصل طلال على شهادة الثانوية بتفوّق، وقرر والده إيفاده إلى بريطانيا لإكمال دراسته. بدت زبيبة ساهمة، شاردة الفكر ليلة سفره، تتطلع بلهفة إلى انفضاض المجلس من الأقارب والمعارف الذين جاؤوا لوداعه لكي تختلي به وتودعه وداعها الأخير. لم تسنح لهما الفرصة وسافر من دون أن يطفئ كل منهما شوقه إلى الآخر.

مرّ عام على غيابه، عرف خلاله نساءً متباينات، وذاق طعم الشقراء والسمراء، لكنه ظلّ في قرارة نفسه يحنُّ إلى زبيبة. كأن الرشفة الأولى للمرأة لها طعم خاص عند الرجال كافة. عندما عاد في عطلة الصيف لزيارة أهله، دارت عيناه بحثاً عنها، كان متلهفاً لرؤيتها، وما إن انصرف الجميع وتبدّد الصخب وعمَّ الهدوء البيت

حتّى هرعت زبيبة إلى غرفته بكل حنينها ورغباتها المكبوتة. تملّكه شعور غريب وهي بين ذراعيه. لم يحسّ أثناء مضاجعتها بالمتعة نفسها التي كانت تنتابه في الماضي. حتى رائحتها لم تعد تثيره. سأل نفسه لحظتئذ وهو يتأمل مفاتن جسدها وهي تلملم نفسها وتنسحب من فراشه: هل من الممكن أن تخبو رغباتنا، وتفتر شهوتنا، تجاه امرأة مع بُعد المسافات ودوران عجلة الأيام؟! أم أن الإنسان بطبيعته البشرية تتقلب مشاعره حسب المواقف والظروف التي يمر بها؟! شعرت زبيبة، بحاسة الأنثى لديها، بأن طلال الذي عاد ليس نفسه الذي تركها منذ عام مضى. نظرت في وجهه وارتسم في محيط عينيها ألف سؤال وسؤال. لكنها لم تجرؤ على طرح أي منها عليه. آثرت طي أشواقها، وكبت غريزتها، وقررت عدم طرق بابه ليلاً، مفضلة العيش على زاد ذكرياتها معه. تحاشى طلال منذ ذلك اليوم الاختلاء بها، وظلّت زبيبة مثل سابق عهدها ترعى شؤونه وتهتم بمطالبه حتّى انتهت إجازته وقفل راجعاً إلى بريطانيا. وعندما جاء في العام التالي لم يرها. سأل والدته عنها، فأخبرته أنها تزوجت منذ عدة أشهر بعامل أريتري يعمل في مركز والده التجاري. وأنه شاب طيب يُحسن معاملتها وهي سعيدة معه وسوف تَلِد طفلها الأول. كان قد جلب لها وشاحاً من الشيفون منقوشاً بألوان زاهية، طلب إلى أمه أن توصله إليها وتبلغها سلامه وتهانيه.

* * *

تعرَّف بعد مرور عامين على دراسته في بريطانيا، إلى فتاة إسبانية تُدعى إيزابيلا، جاءت لدراسة الحقوق. التقاها في أحد

«الديسكوات». كانت باهرة الجمال: بشرة خمرية؛ عينان خضراوان بلون العشب؛ شعر غجري يتموج باللونين الأسود والكستنائي. شدّت بصره من الوهلة الأولى. طلبها تلك الليلة للرقص، قالت له بعينين جسورتين:

ـ لماذا تريد مراقصتي؟!

ـ لأنك أجمل فتاة رأيتها في حياتي.

ربطته بها علاقة وثيقة طوال سنواته الباقية من الدراسة. وأفصح قبل تخرّجه بشهور قليلة عن رغبته في الزواج بها. أطرقت وقتئذ برأسها قائلة بنبرة عطوف:

ـ أنت تعرف مقدار حبي لك، ولا أعتقد أن لديك أدنى شك في هذا، لكنني لا أستطيع العيش في بلادكم. المرأة عندكم أحلامها مبتورة، وظيفتها الوحيدة في الحياة تكوين أسرة وإنجاب أطفال وإهدار وقتها في متابعة آخر أخبار الموضة. لن أستطيع هناك تحقيق ذاتي. كلها أيام قلائل وأحمل لقب محامية. قبولي الارتباط بك يعني أن أدفن حلمي. افهمني جيداً يا طلال، أنا لا أريد أن يتسرب إلى نفسي إحساس غبي بأنك الرجل الذي تسبب في تفتيت طموحاتي. قد أنقم عليك حينئذ وأحوّل حياتك إلى جحيم. وإذا استطعتُ كبح نزعاتي الداخلية، فكيف يمكنني أن أغضَّ الطرف عن حقوق أبنائي!! أريد أن يترعرعوا في بلد يؤمن بمبدأ الحوار، وعلى أرض يعبق مناخها بالحرّية.

ثم استرسلت قائلة بحنو:

ـ أتذكر لقاءنا الأول؟! سألتني وسهام فضولك ترشقني: إلى

أي بلد تنتمين؟! قلت لك: نحن تربطنا صلة قرابة قوية؛ علاقة دم وتاريخ حزين امتزجت فيه دماء أجدادنا. أخبرتك أن جذوري أندلسية، وعروقي تجري فيها أنهار عربية. رددت عليَّ مداعباً: أهلاً بابنة العم. قل لي، كيف يمكنني بعد كل هذا أن أنساك؟! ستظلّ دوماً ذكرى جميلة في وجداني، إلا أنني تعودت دوماً أن أضع حاجزاً بين عقلي وقلبي. لي طلب بسيط، عدني بأن تراسلني. أحب أن تستمر صداقتنا.

* * *

عاد طلال إلى وطنه بعد أن حصل على بكالوريوس في الأدب الإنكليزي، حاملاً بين جوارحه ذكرى مريرة لحب قُدّر له أن يموت وهو ما زال في ريعان صباه. وسرعان ما رضخ أمام إلحاح والديه في الزواج، خاصة أن جميع إخوته تزوجوا وأنجبوا أطفالاً. اختارت له والدته فتاة من أسرة معروفة. كانت وحيدة أبويها، تصغره بحوالى خمسة أعوام. لم يُعمّر زواجهما طويلاً، وانتهى في أقل من سنة، فثمة هوّة فكرية شاسعة كانت تفصل بينهما.

قرر طلال بعدها السفر إلى باريس لتحضير الدراسات العليا في النقد الأدبي. مكث هناك عدة سنوات، اكتسب خلالها الكثير من الخبرات، وبراعة التحدّث باللغة الفرنسية. كانت باريس بالنسبة إليه منهل العلم ومنبر المعرفة. وقرر طوال فترة إقامته في فرنسا ألا يقيم علاقة جادة مع أي امرأة. كانت علاقاته قصيرة النفس سرعان ما تتلاشى بمجرد أن تبدأ.

* * *

توفّي والده بعد فترة وجيزة من عودته، وقررت الأسرة بعد محادثات ومداولات طويلة، تنصيب أخيه الأكبر لإدارة أعمال أبيه. لم يكن أخوه منذ صغره راغباً في الدراسة، فجعله والده يده اليمنى وأطلعه على أموره التجارية كافة. عُرضت على طلال خلال وجوده في السعودية وظيفة مغرية في وزارة التعليم العالي، لكنه رفضها مفضلاً العمل كأستاذ محاضر في جامعة الملك عبد العزيز. وسرعان ما ترك العمل في الجامعة بعد فترة قصيرة وتفرّغ للعمل في الصحافة السعودية، متنقلاً في العديد منها ومشرفاً على الملاحق الثقافية. وذاعت شهرته كشاعر، حتى وصل إلى منصب نائب رئيس تحرير صحيفة «المرايا»، إحدى أكبر الصحف السعودية.

(٢)

أغرقت نشوى نفسها بعد طلاقها من زوجها الثاني، في دوّامة التسكّع والسهر يوميّاً حتى مطلع الفجر، في محاولات مستميتة لنسيان أحزانها. وأخذت تبيع مجوهراتها القطعة تلو الأخرى لكي تنفق على مظهرها الخارجي ومستواها الاجتماعي الذي تعودته، ثم بدأ يسيطر عليها هاجس الخوف من الوقوع في براثن الاحتياج وهي ترى أشياءها تتناقص يوماً بعد يوم. تعرفت أثناء تردّدها إلى أحد صالونات التجميل وتصفيف الشعر، إلى فتاة مغربية تدعى فتيحة. توثقت علاقتهما مع مرور الوقت، وصارتا تتبادلان الزيارات حتى انزاح برقع الحذر والكلفة بينهما. حكت لها فتيحة الكثير عن حياتها، وقصّت عليها تفاصيل زواجها سراً لعدة سنوات من رجل أعمال سعودي، بدأت علاقتهما حين قدم إلى المغرب في زيارة عمل سريعة. تعرفت إليه في أحد الملاهي الليلية التي كانت تعمل نادلة فيه. استشرفت بعينيها أن له منزلة عالية، فرمت شباكها حوله. صار يتردد إليها من حين إلى آخر، ثم قرر الارتباط بها. اشترط عليها عدم الإنجاب وأن يظلّ زواجه منها طي الكتمان. وافقت على مطالبه وأحضرها سراً إلى السعودية، ولكن سرعان ما شاع في وسطه الاجتماعي أمر زواجهما، ووصل الخبر

إلى عائلته مما اضطره إلى الرضوخ لضغوط زوجته وأولاده الذين يقاربونها في العمر فطلّقها. كانت فتيحة قد استوفت الشروط القانونية التي توجب مرور خمس سنوات على الزواج لحصول الزوجة الأجنبية على الجنسية السعودية، واستطاعت العيش في السعودية كمواطنة، إضافة إلى أن مطلّقها قدّم إليها تعويضاً كبيراً اشترت به عمارة سكنية صغيرة في المغرب تدرّ عليها دخلاً ثابتاً، وأصبحت إقامتها موزعة بين كزابلانكا وجدة، بعد أن ألفت نمط العيش في السعودية.

سألتها نشوى يوماً:

ـ أنت ما زلت في مقتبل العمر وجميلة أيضاً، لماذا لم تتزوجي ثانية؟!

ـ هل تصديقنني لو أخبرتك أنني لم أتذوق الحب الحقيقي في حياتي. حتى زوجي تزوجته لاعتبارات كثيرة لا دخل للعواطف فيها. كنت أريد الهرب من شظف العيش الذي كنتُ أحيا فيه. فعلت المستحيل معه لكي يتعلق بي. مارست معه في المخدع كل ما يخطر على بالك من أساليب أنثوية تخدش حياء المرأة حتى نجحت في تقييده بحبال جسدي. آه يا عزيزتي، يظهر أن الفرصة لا تأتينا إلا مرة واحدة في حياتنا. اليوم حياتي فارغة، لذا ترينني أحاول من حين إلى آخر الترفيه عن نفسي بحضور حفلات خاصة.

ـ أي حفلات تقصدين؟!

ـ تلك التي يقيمها عدد من الأثرياء في فيللهم الخاصة.

ـ ألا تخافين أن تلوك سمعتك الألسن؟!

ـ ممَّ أخاف؟! لقد تعودتُ منذ زمن بعيد تقديم تنازلات في حياتي. واليوم لم يعد لديّ ما أخسره!! اسمعي، لماذا لا تأتين معي؟!

ـ هل جُننتِ. أخاف على سمعتي.

استخفت فتيحة بجواب نشوى. أجابتها محاولة استدراجها:

ـ الناس بطبعها تتكلم على الفاضي والملآن. كما أن هذه الحفلات طابعها سري للغاية، وأصحابها حريصون على سمعتهم أكثر من حرصك على سمعتك. واعلمي أنك لست مرغمة على فعل شيء لا تريدينه. بإمكانك الحضور والجلوس للفرجة فقط لا أكثر ولا أقل.

رفضت نشوى بشدة في البداية. لكن فتيحة نجحت بإلحاحها المستمر، وجعلتها توافق على مرافقتها لاستكشاف هذا العالم «الوردي» من وجهة نظرها عن قرب.

* * *

ارتدت نشوى ثوباً أسود اللون يستر كامل جسدها. انفجرت فتيحة في الضحك عندما وقع نظرها عليها، وعلقت ساخرة بأن من يراها سيعتقد أنها ذاهبة إلى مجلس عزاء!! انبهرت نشوى بمظاهر البذخ المحيطة بها. كانت الفيلا غاية في الروعة. بهرها البناء والأثاث المفروش، والمشروبات الكحولية الفاخرة الأنواع المرصوصة على المائدة. مالت على صاحبتها وقالت بصوت خافت:

ـ لا أصدّق أنني في جدة!!

كانت مأخوذة بهذا المشهد غير المألوف لها. جلست طوال الوقت صامتة، تراقب ما يجري في ذهول. كانت هناك فتيات جميلات متباينات الأعمار ومن مختلف الجنسيات. صدحت الموسيقى عند منتصف الليل فبدأت الفتيات بالرقص على مختلف الإيقاعات العربية، ومنهن من اندمجن في أحاديث هامسة مع بعض الحاضرين. المشهد برمّته يُحرِّك فضول نشوى، وتنبهت فجأة إلى قهقهة جهورية من أحدهم قائلاً في تبجّح:

ـ يظهر يا فتيحة أن صاحبتك لم ينل إعجابها أحد!!

هرعت إليه فتيحة. سحبته من يده وهمست شيئاً في أذنه. ارتسمت على وجهه تعابير من الارتياح. لكنه ظلّ طوال الحفل يلاحق نشوى بنظراته النارية الشبقة.

* * *

اعتادت نشوى مع مرور الوقت هذا النمط من السهرات، وتحررت من تحفّظها. ذاقت طعم الخمرة لأول مرة في حياتها. علّمتها فتيحة كيف توقع الرجل في حبائلها، وكيف تأخذ منه ما تريد بمنتهى رضاه. لقّنتها دروساً أخرى في كيفية اغتنام الفرص، وأن تحسب حساب الزمن الذي يُعتبر أكبر عدو للمرأة، وألا تحصر نفسها في تجارة جسدها لأنها تجارة آنية سريعة الزوال. نصحتها بأن تستغلّ علاقاتها الشخصية التي كونتها في القيام بدور الوسيط في إتمام الصفقات الكبيرة، وفي تسهيل عمليات بيع العقارات والأراضي وشرائها لتحصل على نِسَب كبيرة من العمولة من جميع الأطراف. ونجحت نشوى في مدة بسيطة في بيع فيلتها

القديمة وشراء فيلا أحدث في حي الحمراء، تحيط بها حديقة جميلة يتوسطها حمّام سباحة أنيق. وأصبحت لديها سيارة فاخرة ورصيد كبير في البنك، ومجموعة من المجوهرات القيّمة.

* * *

تعود الذكرى بنشوى أحياناً إلى الوراء، وتتذكر تفاصيل أول مواقعة لها مع رجل لا يربطها به أي رباط شرعي ولا تكنّ له أي نوع من العواطف. كان هو نفسه الرجل الذي حاصرها بنظراته وتجاهلته. عضو مجلس إدارة لواحدة من أكبر الشركات في السعودية، ويملك ثروة باهظة. وقد نصحتها فتيحة بأن تستغل هذه الفرصة التي جاءتها على طبق من ذهب لضمان مستقبلها. شعرت بالخزي والعار وهي تراه يرتدي ملابسه على عجل بعد عملية إفراغ لم تستمر أكثر من خمس دقائق، ثم حرر لها شيكاً بمبلغ محترم وغادر الغرفة مسرعاً. بكت نشوى بعد ذلك طويلاً واعتكفت في بيتها. رفضت الرد على مكالمات فتيحة. أدركت صديقتها أن ما تعانيه نشوى ردّ فعل طبيعي. تركتها أسبوعاً ثم فاجأتها بزيارة في بيتها. أخذت تقصّ عليها مغامراتها الأخيرة بأسلوب مسرحي لتخرج نشوى من معاناتها، حتى بدّدت بعد عدة زيارات كل سُحُب تأنيب الضمير وجَلد الذات!! إلا أن الأرق ظلّ يداهم نشوى على فترات متباعدة كلما أرخى الليل أستاره، فيصحو صوت الضمير في أعماقها، وتحسّ بقشعريرة تسري في جسدها، فتهرع إلى صورة والديها تضمّها إلى صدرها، وتغمض عينيها تاركة الدموع تنساب بصمت على وجنتيها، لكن ما إن يطلع النهار حتى تلتهي في ملذاتها ويغفو ضميرها من جديد.

سألت نشوى يوماً فتيحة:

ـ لماذا يدير الرجال ظهورهم للنساء بعد أن ينالوا رغباتهم منهن، ومن دون أن يلوّحوا حتّى بكلمة وداع. كأن تلاحم الأجساد في لحظات الضعف البشري وصمة عار في جبين المرأة وحدها!!

ـ لأن الرجل بطبيعته عندما تصيبه تخمة الشبع، ترفض معدته الاستمرار في التهام نوعية الطعام نفسها. لا تُتعبي نفسك بهذا التفكير الطفولي. حاولي أن تتعاملي مع الحياة بمنطق الواقع. انظري دوماً إلى حياتك من منطلق ما أخذتِ لا من منطلق ما أعطيتِ، وإلا فستظلّين حبيسة عواطفك الساذجة، وسيحاول استغلالها كل عابر طريق!!

(٣)

سارت العلاقة بين غادة وطلال السعدي بهدوء مثل نسمة بحر هادئة في ليلة صيف رطبة، لا يتخلّلها موج عاتٍ، ولا دوامات مفاجئة. تكررت مهاتفاته بحجّة متابعة تحقيقها الجديد حتى أضحت شبه يومية. حاولت مقاومته لكن قوة مغناطيسية جبارة تشدّها تجاهه. تعلقت به، أدمنت كلامه، صار التوتر يصيبها في اليوم الذي لا تسمع فيه صوته. كشف أمامها كل مراحل حياته. حكى لها عن علاقاته السابقة. توقف طويلاً عند قصة حبه للإسبانية إيزابيلا، وروى تفاصيلها بحرقة العاشق المكلوم الذي فقد مَن أَحَبّ. وصف لها كيف أحسّ بالوجع يجتاح فؤاده حين أطلعته في واحدة من رسائلها على خبر زواجها. ولكن، ماذا به لا يرحم عواطفها. ألا يرى إلى الغيرة تأكل قلبها عندما يعكف على ذكر حبه القديم. غدت تعرف عنه كل شيء تقريباً. لم تُبد اعتراضاً حين طلب رؤيتها. تعددت لقاءاتهما. صارا يلتقيان بين حين وآخر للغداء أو العشاء في أحد المطاعم التابعة للفنادق الكبرى، أو في مكانهما المفضل في مطعم السمك الكامن على الكورنيش، ويجلسان جلستهما الأثيرة داخل صلة المطعم، بينهما وبين البحر حائط من زجاج يقيهما من رطوبة البحر، ومن عيون الفضوليين.

أدركت غادة مع مرور الوقت أن هذا الرجل سيعوضها عن كل عذاباتها، بالرغم من الهاجس البعيد الذي كان يتحرك بين حين وآخر في أحشائها ويقضُّ مضجعها ويجعلها ساهرة إلى طلوع الفجر. وكثيراً ما سألت نفسها عن سبب هذا الفزع الرابض في أعماقها، حتى يغلبها النعاس وتستسلم طواعية لإغواء النوم.

* * *

انشغلت غادة بالتحقيق الجديد حول الأسباب المؤدية إلى ارتفاع نسبة الطلاق في المجتمع السعودي، بالرغم من نصيحة طلال لها بأن تصرف النظر عنه لأنه سوف يصرفها عن مواضيع أكثر أهمية من الممكن أن تعرضها على الرأي العام. لكنها أصرّت على المضي في تحقيقها متذرّعة بأنها ستتناوله من زوايا جديدة.

بدأ الغمز واللمز يدوران من حولها، وصارت تسمع تلميحات من زميلاتها إلى دعم نائب رئيس التحرير لها. وانفجر الموقف بينها وبين فوزية بعد أن أبلغتها بأنها ستؤخر نشر موضوعها لأن هناك مواضيع أهم منه. أبلغت طلالاً بالأمر، فهاتف فوزية وطلب إليها إرسال تحقيق غادة إليه للاطلاع عليه.

وافقت فوزية على مضض ثم وقفت أمام مكتب غادة قائلة لها أمام زميلاتها بنبرة تهكم:

ـ تتظاهرين بالوداعة وأنت أخبث من الخبث نفسه!!

ردّت غادة:

ـ أرجو توضيح مقصدك!!

أجابت بحدّة:

ـ اللبيب بالإشارة يفهم. لقد تخطّيتني عدة مرّات كأن لا قيمة لوجودي، وهو ما أرفضه رفضاً قاطعاً. يظهر أن هناك من يدعمك في هذه الجريدة لأسباب خاصة!!

ـ أنا لم أتخطك. أنت تحاولين دوماً تحطيم معنوياتي. أنا أحب عملي، وكل ما أريده شيء من التقدير من جانبك.

* * *

كانت مهمومة عندما حادثها مساءً، ومتأثرة لما جرى. أخبرته بكل ما حصل مع فوزية. ضحك طويلاً معلقاً:

ـ يا لعالم النساء!! لا فائدة، مهما تثقفت المرأة تظلّ الغيرة تنهش فكرها. لا تعرف كيف تضع حدوداً فاصلة بين مواقفها الخاصة ودورها المهني. اسمعي يا غادة، أنت فتاة ذكية وموهوبة، ولو لم تكوني كذلك لما وقفت معك حتى لو كنتِ ملكة جمال العالم. لكنني مؤمن بقدراتك الصحافية بصرف النظر عن مشاعري الخاصة تجاهك.

ـ ليست المرأة هي التي تُحارَب في محيط عملها فقط، الرجل الناجح أيضاً يتعرض لهذه الضغوط الرخيصة. الغيرة من طبيعة البشر رجلاً كان أم امرأة. والفرق ينبع من معدن الإنسان الداخلي في طريقة معاملته للآخرين.

لم يتركها طلال تلك الليلة حتى هدأت أعصابها. وضعت سماعة الهاتف وكلماته الحانية تربت صفحة فؤادها بوداعة.

* * *

دخلت ذات صباح مكتبها. رأت زميلاتها متحلّقات حول

تغريد وعيونهن تطفح هلعاً. كانت تبكي بحرقة. سألت الجميع عمّا يجري فلم يجبنها، ثم تحوّل الحديث إلى همس، وما لبث أن تسرّب الخبر وعلمت غادة أن تغريد كانت على علاقة مع أحد الصحافيين في الجريدة، وخرجت معه عدة مرّات على أمل أن يتزوج بها. كانت قد بلغت سنّ الثلاثين وبدأ هاجس العنوسة يسيطر عليها، لكنها فوجئت بعد فترة بتهرّب الصحافي منها، وتناهى إليها أنه أخبر زملاءه عن هذه العلاقة بتفاصيلها الدقيقة، فانقطعت عنِ العمل، ولم تمضِ سوى أسابيع قليلة حتى قدّمت استقالتها. وأُشيع أنها التحقت بالعمل مدرِّسة في إحدى المدارس الحكومية.

جعلت هذه الواقعة غادة أكثر حرصاً في أسلوب تعاملها مع زملائها الصحافيين من الرجال.

* * *

واعدت غادة صديقتها نشوى على أن تتناولا الغداء معاً يوم الجمعة. فوجئت بمكالمة هاتفية من زوجة أبيها تخبرها بأن والدها متوعك قليلاً ويرغب في رؤيتها، فهرعت مسرعة إليه. كان وجهه شاحباً وبالكاد تخرج الكلمات من فمه. ظلّت غادة تزوره يومياً، تبدأ نهارها بالذهاب إلى الجريدة حتى الساعة الرابعة عصراً ثم تعطف على منزله وتمكث معه بعض الوقت، ترجع بعدها إلى البيت منهكة فتُلقي بجسدها على السرير. توطدت في هذه الأثناء علاقتها بأبيها. تغيّرت معاملته لها، فبعد أن كان رافضاً عملها في الجريدة أصبح يسألها عن آخر تحقيقاتها، ويناقشها في فحوى

المواضيع التي تعرضها، ويحثها على اختيار القضايا التي تهمّ المجتمع بمختلف طبقاته.

مات والدها. أخفوا عنها أنه كان يُعاني فشلاً كلوياً. أمضت مدة طويلة بعد وفاته تحاسب ذاتها: هل كنت ابنة بارة؟! هل كنتُ مخطئة حين حمّلته وحده ذنب طلاق أمي؟! لماذا لم أحاول تحطيم الحاجز الذي كان بيننا؟! هل كنتُ مذنبة لأني تطلعت إلى أن يكون لي كياني المستقل؟ هل اقترفتُ جريمة لأنني حلمت بأن أكون إنسانة حرة؟ ولماذا كان يعارض بشدة أن أكون مستقلة؟ هل كان يخاف أن أتحرر من تحت جلبابه؟ أم كنتُ على خطأ لأني أردت استباق الزمن، بالقفز فوق عادات مجتمعي؟! وما كان يزيد من ألمها إحساسها بأن الكثير من الحواجز بدأ يذوب بينها وبين أبيها قبل أن يختطفه الموت. لكأن ترقّب الموت أو الإحساس بدنوّه ممن نحب يجعلنا نتهاون في حقوقنا، ويدفعنا إلى تجاوز هفواتهم، والتغاضي عن زلاتهم!!

ترك لها والدها إرثاً مالياً كبيراً، وكتب البيت الذي تقطن فيه مع والدتها باسمها، والأملاك الأخرى باسم زوجته وأبنائه. أراد أن يكون عادلاً في قسمته تحسباً لحدوث خلافات مستقبلية تقوّض إرث المحبة الذي حاول زرعه طوال حياته.

(٤)

لم يفارق طلال غادة طوال فترة محنتها. ظلّ يحيطها باهتمامه وسؤاله الدائم عنها ليُخرجها من شرنقة أحزانها. عادا إلى الالتقاء في أماكنهما المعتادة. كان قد مرّ عام على تعارفهما، واقترح عليها طلال أن يحتفلا بهذه المناسبة السعيدة في شقته الجديدة التي اشتراها أخيراً في إحدى عمائر التمليك السكنية الواقعة على الكورنيش. حدّثها عن جمال الشقة وتفاصيل محتوياتها الداخلية، وحرصه في أن تراها لتعطيه رأيها.

الشقة جميلة فعلاً. في الطابق الخامس، ذات صالة واسعة فيها طقم كامل من المقاعد الوثيرة، ولها شرفة واسعة بواجهة زجاجية تطلّ على البحر مباشرة، وغرفة نوم رئيسية بحمّام خاص بها، وغرفة نوم أخرى صغيرة مع حمّام منفصل، ومطبخ مصمّم بأناقة.

بدت غادة مضطربة بعض الشيء. كانت يد طلال مطبقة على يدها بقوة، وهو يدور بها في أرجاء البيت. سألها:

ـ ماذا تشربين؟!

ـ أي شيء.

جلست على الأريكة المجاورة للشرفة تتأمل امتداد البحر من ذاك العلو. عاد يحمل كوبين من عصير البرتقال، جلس إلى جانبها وأمسك بيديها. قال لها وهو يتأمل صفحة وجهها:

ـ كم أحب تقاسيم وجهك!

ثم رفع كفّيها ولثمهما بشفتيه متابعاً:

ـ لماذا يداك باردتان. هل أنت خائفة مني؟!

لم تردّ. اقترب منها، أزاح خصلة شعرها المنسدلة على جانب صدغها، ثم جذبها إليه ودسّ شفتيه في شفتيها. أحسّت بأنها بدأت تفقد توازنها. دفعته برفق عنها وهي تلتقط أنفاسها. ترجّته أن يتوقف. كانت خائفة من أن تُهرق أنوثتها بين يديه سريعاً. كانت ترغب في ذلك، ولكنها كبتت جماح رغبتها. كانا قد اندمجا في أحاديث عامة، ولم يشعرا بالوقت يمضي سريعاً إلا حين غسق عليهما الليل.

* * *

كان عقرب الساعة يقترب من الثانية عشرة عندما عادت إلى المنزل. تغمرها السعادة ورائحة أنفاس طلال لا تزال عالقة في ثنايا جسدها، وفي خصلات شعرها. ما زالت قبلاته الدافئة تلامس شفتيها. أغمضت عينيها. ضمّت وسادتها. أخذت تسترجع تفاصيل اللقاء. استيقظت قرب الظهيرة على يد والدتها تهزها برفق. ألقت عليها تحية الصباح وقبّلت جبينها، ثم أخذت حماماً دافئاً وجلست تتناول طعام الإفطار معها. تمدّدت بعد ذلك على الأريكة في غرفة الجلوس وأخذت تُطالع كتاباً جديداً عن دَور

المرأة في الحياة السياسية في العصر الأندلسي، أحضره لها طلال في سفرته الأخيرة إلى القاهرة. قدّمه إليها وهو يقول مداعباً:

ـ اقرئي لتعرفي كيف كانت المرأة العربية قوية الشكيمة، وكم كان لها أدوار مضيئة في التاريخ الإسلامي.

ردّت عليه يومذاك بنبرة مازحة:

ـ أَعطني حريتي أَطلق يديَّ، أُرِك ماذا يمكن أن أصنع.

كان يوم الجمعة مقدساً عند والدتها. وظلّت على الرغم من صحتها المعتلة، تتمسك بطقوس معيّنة تمارسها في هذا اليوم تحديداً. تبدأه بتناول طعام الإفطار مع ابنتها ثم تقوم بتبخير البيت ببعض العود. تجلس بعدها لمتابعة خطبة الجمعة التي تبث بالتلفاز من المسجد الحرام بمكة المكرمة حيناً، ومن المسجد النبوي بالمدينة المنورة حيناً آخر، ثم تدلف إلى غرفتها للصلاة وقراءة سُوَر من القرآن.

(٥)

اتسعت شهرة طلال بعد صدور ديوانه «أريد قلباً»، وقد قُسِّم الديوان إلى ثلاثة أقسام: اقتصر القسم الأول على قصائد غزل، وانحصر الثاني في قضايا إنسانية، وتضمّن الثالث أشعاراً وطنية. وقد خصَّ غادة بقصيدة الغزل الرئيسية في الكتاب، واختار اسم القصيدة لتكون عنواناً للديوان. فرحت غادة فرحاً لا يُوصف وهي تقرأ القصيدة أمامه بصوت عال. أهدت إليه بهذه المناسبة قلماً خالصاً من الفضة. عبّأته بحبر أحمر، قائلة بمزاح:

ـ حتى تستطيع شطب السطور التي لا تحوز رضاك من مقالات الكُتّاب والكاتبات!!

أخذت تصل إلى مسمعها عبارات الإعجاب والإطراء بأشعار طلال وديوانه الأخير، ومطاردة المعجبات له عبر هاتف البيت والعمل وهاتفه الخلوي. وأججت هذه الظروف المستجدة الغيرة في قلبها، وجعلت الشك يسيطر على فكرها، ويُضخّم الوساوس في أعماقها. وبدأت أشباح الماضي البعيد تظهر من جديد في أفق حياتها. كانت حائرة كغيمة صيف لا تعرف طقوس المطر. وكلما اختلت بنفسها تتآكلها الهواجس والتساؤلات ويلوح لها ماضيها

ككتلة شكّ قائلة: ألم يئن الأوان لأصارح طلالاً بماضيّ؟! أم أنه ملك لي وحدي. ومن ثمَّ يجب دفنه ومواراته في أتربة النسيان؟! وهل من حقّ الرجل الذي سيشاركني في حياتي أن أُفرد أمامه صفحات حياتي بكل سطورها المبهمة؟! وارتأت بعد ليال من الحيرة، أن تأخذ رأي نشوى، وقررت أن تقضي معها عطلة نهاية الأسبوع.

* * *

ضحكت نشوى طويلاً قائلة:

ـ اسمعي يا غادة، يجب أن ترمي هذا الماضي خلف ظهرك. عملية «ترميم» بسيطة عند أحد الأطباء وتذهب هذه القصة إلى غير رجعة وتنتهي المشكلة برمّتها.

توقفت فجأة عن الكلام وسرحت بذهنها برهة وجيزة ثم استرسلت من جديد:

ـ هل أنت واثقة بحبّ طلال؟! أقصد هل أنت متأكدة أنه راغب في الزواج بك. ولماذا لم يتقدم لطلب يدك إلى الآن؟!

ـ صارحني بأنه غير مستعد للزواج في الوقت الراهن بعد تجربة زواجه الأولى، وأنها مجرد مسألة وقت بالنسبة إليه. لكنني واثقة بمشاعره نحوي. لذا أرفض خداع الرجل الذي أحبه. سأكشف له الحقيقة حتى لو أدت هذه الحقيقة إلى فقدانه. على الأقل لأحتفظ باحترام نفسي.

ـ كفاك شعارات يا غادة. انظري إليّ. لقد كنت مثلك غارقة حتى أذنيَّ في بحيرات المُثُل والمبادئ. فماذا جنيت سوى الكذب

والخداع واستغلال عواطفي الصادقة. للأسف، لا يقدّر الرجل في مجتمعاتنا الشرقية صراحة المرأة حتى لو أظهر في البداية تعاطفه معها. سيظلّ ماضيها في قرارة نفسه نقطة سوداء تؤرق باله، ويُلوّح بها في وجهها عند أول مواجهة عاصفة بينهما، هذا إذا لم يحاول استغلال اعترافاتها لمصلحته!! أرجوك يا غادة، تأنّي قبل أن تُقْدمي على هذه الخطوة.

* * *

انغمست غادة في تحقيقها الجديد حول سبب غياب بعض أعمال المبدعين عن الساحة الأدبية، وهي ما زالت في قمة توهّجها الفكري!! تحمّس طلال للفكرة مؤكداً أنها من المواضيع الساخنة التي يجب إلقاء الضوء عليها لأهميتها من جهة، ولعدم تطرق الكثير من الصحافيين إليها، برغم حساسيتها، من جهة أخرى. ورشّح لها عدداً من الأسماء الأدبية، من مناطق مختلفة في المملكة. جاءت إجابات بعضهم مثيرة وجريئة، وإجابات بعضهم الآخر مقتضبة. ولفتت انتباهها إجابة الأديب والقاص ناصر العامر، وأثارت فضولها مرارة حقيقية عبّر عنها، امتزجت بطعم الخيبة لما آل إليه مصير المثقف في العالم العربي. كانت مقتنعة تماماً بكلامه، برغم فجيعته وسوداويته. فالعالم المثالي الذي ينادي به المبدع الحقيقي يجرّ عليه وابلاً من المصائب لأنه دخل في منطقة محرّمة. كانت كلماته غاية في الروعة.

اضطر طلال إلى حذف بعض العبارات من مجمل التحقيق قبل أن يُجيز نشره، ما أثار ريبة غادة، وأظهرت دهشتها من تصرّفه

وهو الذي ينادي ليل نهار بتحرير الكلمة من العبودية والقمع. أوضح لها أنه إذا لم يقم بنفسه بهذا الإجراء فستكون النهاية وخيمة على الجميع، فتقبلت الأمر على مضض.

نُشر الموضوع بإخراج متميّز وحقق صدىً طيباً، نالت عليه خطاب شكر من رئيس التحرير، وعزز مكانتها في الجريدة. رنَّ جرس الهاتف في اليوم التالي مساءً في بيت غادة، رفعت السماعة، فأتاها صوت رخيم، هادئ، يطلب محادثة غادة. أكيد أن من يكلمها يفعل ذلك للمرة الأولى. أجابته بأنها هي المتكلمة:

ـ ولكن مع من أتكلم؟

ـ معك ناصر العامر.

ـ أهلاً، أهلاً، أستاذ ناصر. اعذرني لم أعرفك. لم يسبق لنا الحديث من قبل. للأسف، لقد تمّ تعاوننا عن طريق الفاكس.

ضحك ضحكة قصيرة معلقاً:

ـ لا أدري إن كان هذا الاختراع في مصلحة البشر، أم أنه ساهم في اتساع الفجوة بين الناس!!

ـ لكل شيء في حياتنا قيمتان: سلبية وإيجابية.

ـ هذا صحيح.

ثم استرسل قائلاً:

ـ أكيد أنك تتساءلين عن سبب اتصالي بك!! أرجو المعذرة أولاً على تطفلي في سعيي إلى الحصول على رقم هاتفك. أردت ثانياً، أن أهنئك على تحقيقك المتميز وإن كنتُ قد لاحظت قيامك بحذف بعض العبارات من إجابتي!!

ـ لا داعي إلى الاعتذار يا أستاذ ناصر. شرف لي أن أتحدث مع شخصية أدبية مرموقة مثلك. وبخصوص ملاحظتك!! أنت تعلم أن ليس كل ما يُعلم يُقال، وأن هناك خطوطاً حمراء يصعب القفز فوقها. صدقني، لو كان الأمر بيدي لنشرت إجابتك كاملة. لكن ما باليد حيلة. أنا مجرّد صحافية والأمر خاضع في النهاية لرؤية إدارة التحرير.

ـ أقدّر موقفك. أنا إنسان تعودت قول الحقيقة مهما كانت قاسية. لقد مُنعت من مزاولة الكتابة مرتين، وصودر كذلك معظم كتبي، إلا أنني ما زلت أؤمن بأن دور المثقف الحقيقي هو الكشف عن عورات مجتمعه حتّى يتم ترميم الصدوع والآفات التي تريد التغلغل في بنيته. أعلم أنني سأذهب يوماً ولن يبقى سوى فكري. لذا، لا أريد أن أدخل التاريخ من بوابته الخلفية!!

لم ينتبها كم أمضيا من الوقت عبر الهاتف. تطرقا إلى مواضيع شتى، عن الواقع الثقافي العربي، وسيطرة الشللية على المنابر الثقافية. وتحدثا عن الركود الفكري الحاصل في العالم العربي بأسره مع انتهاء عصر النهضة، وغرق الأسواق بالإنتاج الغثّ السطحي.

استمرت المحادثة أكثر من ساعة. أغلقت غادة سماعة الهاتف يخامرها شعور بزهو بريء. أدركت أنها أمام شخصية مميزة، ورجل على قدر كبير من الثقافة والوعي.

(٦)

أكملت غادة عامها التاسع والعشرين. استيقظت على قبلة حانية من أمها، طبعتها على خدها قائلة:

ـ كل عام وأنت بألف خير.

قدّمت إليها علبة مربوطة بشريط أحمر، عبارة عن خاتم من الذهب الأبيض مطعَّم بفصوص صغيرة من الألماس، وفي وسطه حجر روبي. حضنت والدتها وشكرتها على هديتها. قضت صباحها معها ثم أخبرتها وهما على طاولة الغداء برغبتها في الذهاب إلى مصفّفة الشعر لأنها مدعوة على العشاء عند نشوى التي تقيم لها حفلاً لمناسبة عيد ميلادها. لكن الحقيقة التي وارتها أن طلالاً أصرّ بشدة على أن يحتفلا معاً في شقته التي لم تطأها قدماها سوى مرة واحدة. ومنذ ذلك اليوم كلما عرض عليها أن تأتي إلى شقته تعتذر بلطف مبررة رفضها بأنها تفضل لقاءه في الأماكن العامة.

* * *

اشترت غادة لهذه المناسبة ثوباً زهري اللون، أضفى على وجهها بريقاً جذاباً. تركت شعرها منساباً على كتفيها، ووضعت عطراً جديداً أحضرته لها نشوى من سفرتها الأخيرة إلى باريس.

وقف طلال مبهوراً عندما دلفت من الباب، ثم أطلق صفيراً قائلاً:

ـ يا الله، كم أنت ساحرة وجميلة يا حبيبتي هذه الليلة!!

نظرت صوبه بعتاب قائلة:

ـ الليلة فقط!!

ضحك قائلاً:

ـ لم أقصد، لكن هذا اللون أضفى عليك مزيداً من الحسن. تعالي.

سحبها من يدها وأجلسها على الأريكة إلى جانبه. كان هناك قالب من الحلوى موضوعاً على الطاولة غُرست فيه شموع صغيرة بعدد سنوات عمرها، وإلى جانبها لفافة صغيرة. انعكس ضوء الشموع المتراقص على صفحة وجهها فزادها جمالاً. تأملها صامتاً ثم لفّ خصرها بذراعه طالباً منها أن تطفئ الشموع وتتمنى أمنية في أعماقها. أغمضت عينيها متمتمة في سرّها أن يكون الرجل الجالس إلى جوارها من نصيبها، ونفثت في الشعلات. سألها طلال مبتسماً:

ـ ماذا تمنيت؟!

أجابت:

ـ ألاّ نفترق أبداً.

مدّ يده وقدّم إليها اللفافة قائلاً:

ـ كل سنة وأنت بألف خير.

كانت هديته عبارة عن ساعة برباط جلدي أسود، تحيط

بإطارها فصوص من الألماس. أبدت غادة إعجابها بذوقه. طوّقته بذراعيها، وطبعت قبلة خاطفة على شفتيه. ضمّها إليه في لهفة وأخذ يتحسّسها، رجته أن يتوقف. لاحظ أنها مضطربة بعض الشيء. ظنَّ أن توترها بسبب وجودهما بمفردهما. كانت لا تزال تتأمله. كأنها تراه لأول مرة. أحسّت بأن قلبها يكاد يتوقف عن الخفقان. كانت خائفة، ومرتبكة، ثم فجأة ومن دون مقدمات قالت بنبرة متهدّجة:

ـ طلال، هناك موضوع هام أودّ مصارحتك به!!

تغيّرت سحنته:

ـ موضوع هام! ما هو؟!

حكت غادة قصتها من بدايتها، من تلك اللحظة التي التقطت فيها يداها ورقة طلاق أمها، إلى اللحظة التي رحل فيها زيد عن دنياها. كانت تسرد حكايتها متحاشية التقاء عينيها وعينيه، تاركة دموعها تنهمر بدفء على وجنتيها. توقفت فجأة عن الحديث. حكايتها التي تريد بقوة أن تصارحه بها، وتخاف البوح بها في آن، قد شارفت نهايتها. أجهشت بالبكاء، ثم ارتمت على صدره. هل تحبه إلى هذا الحدّ. هل هي مجنونة به إلى درجة أنها تخشى أن تجرحه، ولا يهمها أن تهتك سرّها. كانت مشاعر طلال في تلك اللحظة مزيجاً من الصدمة والحيرة والاندهاش والرغبة أيضاً. ضمّها بقوة إلى صدره محاولاً تهدئة انفعالاتها، ثم رفع وجهها وبدأ يلثم دموعها المتساقطة بشفتيه، وطبع على ثغرها قبلة طويلة، ثم راحت يداه تعبثان بحرية أكبر في مواطن أنوثتها. كانت في تلك

اللحظة أضعف من أن تقاومه. كان عبء ماضيها الذي تحمله في أحشائها ثائراً هائجاً، يريد التحرر منها، فتعطّلت أسلحتها الدفاعية كافة وقذفت بنفسها من دون وعي في بحيرة فحولته. في أعماقهما رغبة جارفة في أن يغرس كل منهما رحيقه في تربة الآخر. وعندما أفاقا من نشوتهما كان الوقت قد تجاوز منتصف الليل، وعقرب الساعة يقترب من الثالثة صباحاً. فزعت غادة، ارتدت ملابسها على عجل. وما إن دخلت الدار حتى وجدت والدتها في انتظارها بغرفة الجلوس وهالة من الهلع تشعّ من عينيها. أنّبتها على تأخرها. تمنّت غادة آنئذ لو كانت تملك قدراً من الشجاعة لتصارح أمها بما وقع لها في الماضي، وبما جرى لها قبل ساعات. خافت على قلب أمها ألا يتحمّل أخطاءها، فاعتذرت لها مبررة بأن طعام العشاء قد وُضع في ساعة متأخرة، متحاشية النظر في عيني والدتها، وهرعت مسرعة إلى غرفتها.

لم تعرف عيناها النوم تلك الليلة. استرجعت تفاصيل ما حدث بينها وبين طلال بفكر مغموم وقلب واجف. كانت كمن صحت تواً من سكرتها: كيف استسلمت له، وكيف تركته طائعة يهرق شبقه في لجة أنوثتها. وهل ما وقع الليلة دليل على أن طلالاً لا يأبه لماضي حياتها؟! ولا يهمّه سواها؟ أم أن نشوى على صواب حين قالت إن الرجل يتغاضى عن أخطاء المرأة إذا تيقّن أنها ستصبّ في مجرى مصلحته؟! هل كان طلال يستدرجها، ليحصل عليها في فراشه، وهل سيكون هذا الماضي حجر عثرة في طريق علاقتهما؟! طافت تساؤلات كثيرة في رأسها من دون أن تجد إجابة لها. لم تخلد إلى النوم إلا حين بدأت حركة النهار

تدبّ في الخارج. استسلمت في تلك اللحظة لنوم يشبه السُّكْر، وأعماقها مثقلة بهموم المجهول!!

* * *

كانت غادة ونشوى متمدّدتين على كرسيين خشبيين عند حمّام السباحة في فيلا نشوى، في انتظار طعام الغداء. قصّت عليها غادة كل ما جرى بينها وبين طلال. غابت ابتسامة نشوى وشرد نظرها إلى البعيد وقد تجهّم وجهها.

سألتها غادة:

ـ ما سبب ضِيقك المفاجئ؟!

ـ لا أعرف، أعتقد أنه لم يتفهّم صراحتك. لقد حذرتك ولم تسمعي نصيحتي.

ـ لكن طلالاً ليس من هذا الطراز.

ـ كل الرجال الشرقيين في نظري سواء. يتظاهرون بالتحضّر وفي دواخلهم يحملون عقدة موروثاتهم الاجتماعية، مهما نالوا من شهادات علمية، ولو جابوا الدنيا شرقاً وغرباً. وسوف تؤمنين بكلامي يوماً ما.

ردّت غادة بعصبية:

ـ أتدرين ما مشكلتك يا نشوى؟! تصرّين على الحكم على الرجل من منظار تجاربك المرتبطة برجال من طينة معيّنة؛ رجال مثل وطاويط الليل، لا تقابلينهم إلا في أماكن مشتبه فيها، وفي الهزيع الأخير من الليل!! هذا الصنف من الناس يا صديقتي يختلف تماماً عن الذين يمارسون حياتهم في وضح النهار.

ـ هذا كلام الساذجين أمثالك. الرجال لا يختلفون. كل ما في الأمر أن الموضوع ينحصر في أنهم يضعون الأقنعة في النهار، وينزعونها في الليل!! والمرأة الذكية هي التي تلفظ الرجل قبل أن يلفظها.

ـ أرى من الأفضل أن نُغيّر مجرى الحديث.

ساد الصمت بينهما برهة وجيزة قطعته غادة بالسؤال:

ـ ما آخر أغاني محمد عبده؟! يقولون إن شريطه الأخير اكتسح السوق!!

انخرطتا في أحاديث شتى، لكن غادة ظلّت مشغولة البال. تدور داخل رأسها كل ظنون نشوى، متمنية ألاّ يُخيّب طلال ظنها.

* * *

رنّ جرس الهاتف مساءً في منزل غادة. اعتقدت أن المتصل طلال. لم يصدق حدسها. كان على الخط ناصر العامر. سألها عن أحوالها، وآخر تحقيقاتها، ثم عرجا على ظروفه الحياتية، وكيف بات يحسّ بالوحدة بعد حصول ولده العام الفائت على الشهادة الثانوية وسفره إلى الولايات المتحدة الأميركية لتكملة دراسته. سألته عن زوجته، أجاب بأنها توفيت في حادث سيارة منذ ثماني سنوات. أبدت غادة استغرابها من عدم زواجه مرة أخرى. ولم تكن تخمن أن يكون له ولد في الثامنة عشرة. فصوره في الجرائد والمجلات لا توحي أن لديه ابناً في هذا العمر!! علّق على ملاحظتها بأنه تزوج في سنّ مبكرة بناءً على رغبة والده، وأخبرها أنه لم يجد بعدُ المرأة التي تقنعه بالارتباط بها مرة ثانية.

* * *

كثرت أسفار طلال لحضور ندوات وأمسيات شعرية في دول خليجية وعربية بعد ذيوع صيته، وبدأت غادة تفقد السيطرة على انفعالاتها. دوماً متوترة، سريعة التأثر والغضب، وهي التي كانت تتصف بالوداعة والهدوء. تفهّم طلال سبب معاناة غادة فكان يحادثها يومياً من أي مكان يسافر إليه لتحسّ بالطمأنينة. لكن ما إن يقفل سماعة الهاتف حتى تغرق في مستنقع وساوسها من جديد. ودفعتها فترات غيابه المتكررة إلى الانغماس أكثر في عملها، والاعتكاف مساءً في البيت إلى صبيحة اليوم التالي، مبددة وقتها في القراءة.

كانت علاقتهما قد دخلت عامها الرابع من دون أن يفاتحها طلال في أمر زواجهما، فقررت بينها وبين نفسها أن تستجمع شجاعتها هذه المرة وتصارح طلالاً بعد عودته من السفر بكل ما يدور في رأسها، وتطلب إليه أن يضع النقاط فوق الحروف لهذه العلاقة التي أضحت معلقة في الهواء: لا تستطيع أن تلامس الأرض، ولا تملك القدرة على السموّ مع السحاب!!

* * *

وضعت غادة الوسادة خلفها. أسندت إليها جذعها العلوي وكلّمته بأنفاس متلاحقة:

ـ لم أفاتحك طوال المدة الماضية في أمر زواجنا على أمل أن تكون المبادرة منك. ألم يحن الوقت لنتحدث عن مستقبلنا؟!

تأملها ثم أشعل سيجارة ونفث دخانها بقوة وعلّق نظراته بسقف الغرفة.

سألته:

ـ أنا في انتظار الإجابة.

ـ أعلم أن ما تطلبينه حق من حقوقك، لكنني أريد مهلة لتبديد ضباب الماضي!!

ـ هل تريد محاسبتي على ماض ليس لي ذنب فيه؟!

ـ لا، يا حبيبتي، أعلم أنك كنتِ ضحية، لكن ساعديني لكي نتمكن من عبور هذا الحاجز.

ـ تذكّر أنك أردت يوماً الارتباط بامرأة مرّت بتجارب عديدة، وكنتَ تتمنى لو قبلتْ بك زوجاً.

ـ غادة، لا تنكئي جراحي. هذا ماض ولّى وانتهى.

ـ لماذا غسلتَ أخطاءها، وترفض أن تغفر لي خطأً واحداً؟!

صمت برهة معلقاً:

ـ لا أدري، ربما لأننا ننظر إلى المرأة العربية على أنها مخلوق طاهر، محظور عليهِ تذوّق طعم الخطيئة. نعم يا غادة، نحن في دواخلنا أنانيون، بدائيون، همجيون، حين يتعلق الأمر بنسائنا على اعتبار أنهن جزء لا يتجزأ من ممتلكاتنا!!

بكت غادة بحرقة. أخذها طلال في حضنه يُطيّب خاطرها ويلثم بشفتيه دموعها.

(٧)

قدّمت فوزية إلى رئيس التحرير عدة مطالب: حقها في تعيين صحافيات تجدهن كفوءات من وجهة نظرها وإقصاء من تجدها غير مؤهلة للعمل في القسم؛ ومنحها تفويضاً كاملاً لإجازة التحقيقات والمقالات الصادرة من القسم النسائي من دون الرجوع إلى إدارة التحرير؛ والتعامل معها كمديرة تحرير حقيقية وليس مجرد إطار خشبي لصورة مهزوزة. رفض رئيس التحرير مطالبها جملة وتفصيلاً، فاعتبرت موقفه دليلاً دامغاً على عدم الثقة بقدرات المرأة بالإصرار على إبقائها تابعة للرجل في عالم الصحافة، ودفعها إلى تقديم استقالتها احتجاجاً. بدأت مداولات ومشاورات داخل إدارة التحرير لاختيار صحافية لرئاسة القسم خلفاً لها، وكان اسم غادة مطروحاً بقوة لاعتبارات كثيرة. كانت قد أمضت عدة سنوات في الصحيفة وتمرّست في العمل الصحافي واكتسبت خبرة لا بأس بها، إلى جانب جهودها الواضحة في مجال التحقيقات. وقع الاختيار عليها وغدت أصغر رئيسة قسم مقارنة برئيسات الأقسام في الصحف المحلية الأخرى.

لم تعبأ غادة بالغمز واللمز اللذين ألفت سماعهما بأن جمالها هو الذي أوصلها إلى هذه المكانة الاجتماعية، وقررت أن تصمَّ

أذنيها عن كل ما يُقال خلف ظهرها. كانت بينها وبين نفسها موقنة بأن الأيام ستؤكد للجميع كفاءتها في تولّي هذا المنصب.

اتسعت دائرة معارف غادة لتشمل الطبقة المثقفة على اختلاف تخصّصاتها. كانت السعودية في ذلك الوقت قد بدأت تشهد نقلة كبيرة في حركة الفنّ التشكيلي واتساع دائرة النشاطات الفنية، وأصبحت المعارض المقامة تكاد تكون شبه شهرية، فحرصت غادة على إرسال صحافيات من القسم لتغطيتها. وتعرفت في هذه الآونة إلى الفنانة راوية عبد الحق، التي تُعتبر من أبرز الفنانات التشكيليات.

* * *

راوية عبد الحق من مدينة جيزان. تتسم لوحاتها بالطابع السوريالي، وشاركت في عدة معارض محلية وعربية. أقامت معرضها الخاص الرابع، واهتمت بإرسال بطاقات الدعوة إلى معارفها وعدد من سيدات المجتمع، ورئيسات الأقسام النسائية في الصحف، وبعض الصحافيين والصحافيات. لم تسنح الفرصة لغادة لحضور حفل الافتتاح بسبب انتكاسة صحة والدتها واضطرارها إلى المكوث إلى جوارها، لكنها حرصت على إرسال صحافية لتغطية المعرض، وبعثت إليها بباقة كبيرة من الزهور مع بطاقة تهنئة صغيرة باسمها.

يُعَد والد راوية من الطبقة التي اغتنت زمن الطفرة في عهد الملك خالد. كانت الأموال في تلك الحقبة تنساب بشكل كبير نتيجة الارتفاع الجنوني لأسعار النفط، وأدّت إلى انتعاش الحركة

العمرانية داخل السعودية، وأتيحت الفرصة أمام الكثيرين لتحقيق الثراء السريع. وقد شجع أحد معارف والدها المقيم في جدة، والد راوية على ترك جيزان والاستقرار في جدة للمتاجرة معه في الأراضي والعقارات التي ارتفعت أسعارها ارتفاعاً جنونياً. وقد صفّى فعلاً مكتبه هناك وأنشأ مكتباً عقارياً كبيراً بالمشاركة مع صديقه، حتى أصبح في سنوات قليلة من الأثرياء.

* * *

تماثلت والدة غادة إلى الشفاء. كان قد بقي يومان على انتهاء معرض راوية. هاتفتها غادة ووعدتها بأن تمر بها بعد أن تنتهي من دوامها بالمكتب. بدا المعرض خالياً إلا من عدد محدود من الزوار. طافت راوية بغادة في أرجاء المعرض لتطلعها على اللوحات، وفجأة برقت عينا راوية وصاحت قائلة بنبرة فرحة:

ـ أستاذ ناصر، أهلاً بك، كم أنا مسرورة بقدومك!

التفتت إلى غادة:

ـ أقدم لك الآنسة غادة عبد الحي، رئيسة القسم النسائي في جريدة «المرايا».

لمعت عينا ناصر وارتسمت ابتسامة على شفتيه قائلاً وهو يمدّ يده:

ـ سعيد برؤيتك يا آنسة غادة.

ثم وجّه حديثه إلى راوية قائلاً:

ـ أعرف الأخت غادة منذ مدة، لكن عبر أسلاك الهاتف فقط. لقد استضافتني في أحد تحقيقاتها الصحافية.

لاحظت غادة أن ناصر كان يسترق النظر إليها أثناء تجوالهم في المعرض. تفحّصته هي الأخرى من تحت ستار جفنيها. إنه ذو ابتسامة ساحرة وحضور جذاب. كان في الواقع على قدر كبير من الوسامة. أصرّت راوية على أن يتناولوا جميعاً القهوة في المكتب الصغير المؤسَّس في إحدى زوايا المعرض. انصبَّ الحديث حول النشاطات الثقافية، وأظهرت راوية حسرتها لعدم وجود دراسات نقدية للأعمال الفنية، وأن كل ما يُكتب في الصحف والمجلات مجرّد مرئيات شخصية.

علّقت غادة:

ـ لا أدري لماذا لا توجد لدينا كلية فنون جميلة، أو معاهد أكاديمية متخصصة مثل معظم الدول العربية!! إنني أؤمن بأن الفنون ما هي إلا انعكاس لحضارات الشعوب.

قال ناصر:

ـ صار الوسط الثقافي بأسره للأسف يختلط فيه الحابل بالنابل. يحتاج عالمنا العربي اليوم إلى ثورة فكرية ثقافية مثل التي حدثت في أوروبا.

كانت راوية تُنقّل بصرها بين غادة وناصر. أدركت منذ الوهلة الأولى أن ناصر معجبٌ بغادة، ولاحظت غادة هي الأخرى أن راوية معجبة بناصر. شاهدت ومضات من الغيرة تتراقص في عينيها كلما وجّه إليها ناصر سؤالاً. استأذنت غادة بعض مضيّ ساعة في الانصراف حتى لا تتأخر عن والدتها التي ما زالت في طور النقاهة. كتبت قبل رحيلها كلمة في سجل الزيارات. ضغط ناصر

على يدها ضغطة خفيفة وهو يودّعها. أحسّت بدفء كفه، فسحبت يدها بسرعة.

* * *

راوية في حوالى الخامسة والثلاثين. عادية الجمال، عيناها مسحوبتان مثل عيون سكان شرق آسيا، تشعُّ منهما الطيبة. أنفها أفطس، شفتاها رفيعتان. قمحية البشرة، قصيرة القامة، ضئيلة البنية، يغطي شعرُها رقبتَها وينساب ناعماً من دون تموجات. لكنها تمتاز بشخصية قوية، وحدة ذكاء، وسرعة بديهة. تملك نَفَساً طويلاً في سبيل تحقيق طموحاتها. كان في شخصيتها تمرّد على تهمة العنوسة التي تراها في عيون مَنْ حولها. واختارت الخط السوريالي لتعبّر من خلاله عن ثوراتها الداخلية ورفضها الصارخ للواقع الاجتماعي الضيق الرؤية الذي تعيش فيه. وتجلّى هذا التذمّر وهذه الثورة الداخلية من خلال اختيارها للألوان الدكناء وتطعيم بعض لوحاتها باللون الأحمر الذي يعبّر عن رغباتها الأنثوية المكبوتة.

* * *

كان ناصر من متابعي حركة الفن التشكيلي، ولديه قناعة ذاتية بأن خطوط الفن متشابكة. كما كان من أشد المعجبين بخط راوية الفني. لكن إعجابه بها لم يتجاوز هذا الحدّ.

اتصل ناصر بغادة في اليوم التالي معبّراً عن سروره بلقائها. تحدثا عن لوحات راوية التي تمّ عرضها في معرضها الأخير. سألته بفضول:

ـ هل تعرف راوية منذ زمن بعيد؟!

ردّ بخبث:

ـ هل تهمّك الإجابة؟!

ـ لا، إنه مجرد سؤال. بإمكانك تجاهله لو أردت.

ـ أعرفها منذ سنتين. أقدّر فيها موهبتها العالية وإصرارها على أن تخلق لنفسها مكاناً في هذا الدرب الشائك.

ـ هل تعتبر الفن طريقاً وعراً؟!

ـ تحتاج الفنون جميعها إلى إرادة صلبة. لا تنسي أن الفنان العربي يعمل في مناخ مكبّل بقيود غليظة من العادات والتقاليد، فكيف الحال بمجتمعنا السعودي الغارق حتى أذنيه في هذا اليم؟!

ـ ألا ترى معي أن معاناة الفنان هي المصدر الحقيقي الذي يستقي منه إلهامه ويفجّر فيه طاقاته؟!

ـ قد يكون في رأيك جانب كبير من الصواب لأن الفنان الحقيقي دوماً في حالة صراع مع نفسه ومع مجتمعه، من خلال سعيه إلى تحقيق حلمه في تشييد المدينة الفاضلة. لكنْ هناك أيضاً فنانون لعبوا على لحظات سعادتهم وعبّروا عنها وجسّدوها في لوحة، أو قصيدة، أو قصة. لي رأي خاص قد يكون مرفوضاً من قِبَل بعضهم: لماذا يُصرّ الكثير من الفنانين على تصوير معاناتهم ولا يلتفتون إلى لحظات الفرح التي يعيشونها؟! أليس جميلاً أن نسجّل مشاعرنا بكل تقلباتها العفوية؟!

* * *

انشغلت غادة بإجراء تحقيق كبير حول الأربطة(*) في مدينة جدة. عاونتها في هذا التحقيق صحافيتان من القسم، والتقت على مدى أيام عجائز طاعنات في السن اضطررن إلى الإقامة في هذه البيوت بعد أن تقلّب الزمن عليهن ولم يعد لهن مأوى. وقابلت سيدات في منتصف العمر وصلن إلى هذه الدُّور بعد أن غدر بهن أزواجهن ولم يعد لديهن مورد يعشن منه!!

كانت في هذه الأربطة صور مأسوية تُدمي الفؤاد، أثّرت في غادة، وأنهكت روحها. أفضت لطلال بأسفها على ما شاهدته قائلة:

ـ ما رأيك، أفكِّر جدّياً في خاتمة التحقيق، بمطالبة مُشرّعينا أن يسنّوا قوانين جديدة يستمدونها من أصول شريعتنا، لحفظ حقوق المرأة التي تُفني زهرة شبابها من أجل أسرتها وتُكافأ بجحود الأبناء وغدر الزوج الذي يستبدلها بزوجة في عمر بناته بعد أن تذهب سطوة جمالها، فتجد نفسها في نهاية المطاف على قارعة الطريق. أليس ظلماً أن تخرج المرأة خالية الوفاض بعد هذا الكم من التضحيات؟! أليس من حقها أن يكون لها نصيب في مال زوجها الذي عاشت معه سنوات كفاحه؟! اللّه يرحمك يا أبي، لم يتخلَّ يوماً عن مسؤوليته تجاه أمي، ولم يقصّر في تلبية احتياجاتها حتّى وفاته.

ـ أنتِ محقّة. لم تكن هذه الصورة شائعة في عهود آبائنا

(*) الأربطة، هي الأمكنة التي يقيمها الأثرياء من المواطنين لمساعدة الأسر الفقيرة التي ليس لها مأوى، المكوّنة من النساء والأطفال.

وأجدادنا. كان المجتمع متمسكاً بقيمه الإنسانية والأخلاقية. كان الرجل في الماضي إذا طلّق زوجته يُسرّحها بإحسان كما أمرنا ديننا، بينما لم يعد الزوج اليوم يعبأ بمصير مطلقته، بل يسعى جاهداً إلى سلب كل ما قدّمه إليها عندما كانت على ذمته.

ـ هل تعتقد أنه كان للثروة النفطية التي هبطت فجأة على المجتمعات الخليجية، دور في هذا الانهيار الأخلاقي الحاصل اليوم؟

ـ ربما تشكّل عاملاً من العوامل، لكن نمط الحياة المعاصرة، بلا شك، جعل العالم بأسره يعيش في فوهة بركان.

(٨)

عيّن رئيس التحرير فتاة جديدة في القسم النسائي في حوالى الرابعة والعشرين، تدعى دلال المعشر. مطلقة، استمر زواجها عدة أعوام ثم طلبت الطلاق بسبب إدمان زوجها الكحول واعتدائه عليها يومياً بالضرب. أثمر زواجها طفلاً وحيداً. والدها من بدو الأردن ووالدتها دمشقية. نزح والداها إلى السعودية منذ أكثر من ثلاثين سنة واستقرا في جدة. واستطاع والدها الحصول على الجنسية السعودية بمساعدة أحد كبار المسؤولين الذي تربطه به صلة قرابة بعيدة من ناحية الأم. كانت فاتنة، تجمع بين الجمال البدوي والحُسن الدمشقي. جسدها أنثوي، وبشرتها بيضاء مخضبة باللون الوردي. عيناها واسعتان مزروعتان بفصّين شديدي الزرقة، وشعرها ذهبي ناعم ينسدل إلى منتصف ظهرها.

كان رئيس التحرير قد أرسل إلى غادة خطاب تعيينها وأوصاها بها. وعندما دخلت القسم النسائي لأول مرة فغرت الفتيات أفواههن. ابتسمت ونظراتها تطفح بالغرور وهي ترى ردّة فعلهن. كانت محدودة الثقافة، وليس لديها معلومات كافية عن طبيعة العمل الصحافي، لكنّ لديها سرعة بديهة، ومكراً أنثوياً. أخبرتها

غادة أنها ستسند إليها في البداية مراجعة تحقيقات زميلاتها حتّى تتكون لديها خبرة كافية تساعدها على كتابة التحقيقات، وتكليفها تغطية بعض الأنشطة المدرسية.

تحرّك الفضول لدى غادة: تريد أن تعرف مَن وراء تعيين هذه الفتاة!! ألحّت على طلال ليخبرها عن خلفية هذه الفتاة، ضحك ضحكة طويلة معلقاً:

ـ هل هي جميلة إلى هذا الحد لكي تُكدّر خاطرك؟!

أجابته بعصبية:

ـ كل ما في الأمر أنني أحب أن أعرف كل ما يدور خلف ظهري إذا كان الأمر يتعلق بالمكان الذي أعمل فيه.

* * *

تناولت غادة في إحدى الأمسيات العشاء في منزل صديقتها نشوى. أخبرتها عن الصحافية الجديدة دلال المعشر، فصمتت نشوى قليلاً وظهرت علامات الدهشة على وجهها.

سألتها غادة:

ـ هل تعرفينها؟!

ـ ألم أقل لك يا عزيزتي إن في الجلسات الخاصة سبع فوائد. الكل يتهافت على طلب ودّ هذه الفتاة. أنصحك بأن تكسبيها إلى صفّك فلديها نفوذ أكبر مما تتخيلين!!

ـ ما دام هذا طريقها، فلماذا اختارت عمل الصحافة بالذات؟!

ـ لسبب مهم من وجهة نظرها: رغبتها في أن تصبح من زمرة

المشاهير من منطلق أن الشهرة تضفي على صاحبها بريقاً اجتماعياً أخّاذاً.

ـ هل تعتقدين أن ثمة علاقة خاصة تربطها برئيس التحرير؟!

ـ لا، رئيس تحريرك رجل أُسري. في الحقيقة هي على صلة قوية بأحد أصدقائه المقربين. وأعتقد أن العلاقة ستتكلّل بالزواج. فهو غارق في حبها إلى درجة الجنون.

* * *

لم تكن غادة ترتاح نفسياً إلى دلال. لم تتلاقَ روحاهما، ولم تتجاوز علاقتهما حدود العمل. بعد مرور أسابيع قليلة، دخلت غادة صباحاً إلى مكتبها كالعادة، ففوجئت وهي تتصفح الجريدة بمقال منشور في الزاوية العليا من صفحة الثقافة مذيل باسم دلال المعشر. توترت وتلاحقت أنفاسها. طلبت رقم طلال. سألته بصوت مضطرب:

ـ من أعطى مساحة عمود في الصحيفة لدلال؟!

ـ رئيس التحرير بالطبع. هو من اعتمده.

ـ لكنه لم يستشرني؟!

ـ أنت تعلمين خلفية هذه المرأة جيداً!!

ـ هذا كثير، إنه استخفاف بي. سأقدّم استقالتي.

ـ غادة، لا أريدك أن تستسلمي وتنسحبي احتجاجاً على أوضاع لن تتغير بالسهولة التي تتصورينها. يجب أن تقاومي لتنتزعي حقك في ممارسة دورك كمديرة تحرير فعلية. ألا يقولون في أمثالنا الشعبية إذا كانت الريح عالية فطأطئ رأسك حتّى تمر

بسلام!! إحني قامتك قليلاً وهذا لا يعني أنك ضعيفة، بل تأكيد على أنك تملكين قدرة التكيّف مع الظروف المحيطة بك.

* * *

دخلت والدة غادة المستشفى لعملية قسطرة في القلب، فانهمكت في دوامة مرض والدتها. غدت تنفرد بنفسها كثيراً. تبكي والدتَها خوفاً من فقدانها وخشية أن تصبح وحيدة في الحياة، ثم لا تلبث أن تبكي والدها الذي لم تشعر بأبوّته إلا على جرعات متقطعة. أمضت يومها في الحسرة والبكاء: تارةً تبكي حبها الطفولي الذي تلاشى من حياتها بين يوم وليلة، ومرة أخرى تبكي حبها المعلق في غرفة الإعدام منتظراً قرار الرحمة، خاصة بعد أن تفاقمت مشاحناتها مع طلال. قال لها في واحدة منها:

ـ لم أعد أحتمل. يجب أن تضعي حداً لأوهامك وشكوكك. لا يمكن أن تستمر علاقتنا وسط هذا الكم من الهواجس المسيطرة على تفكيرك. إذا لم تجلب العلاقة الطمأنينة للطرفين يصبح استمرارها ضرباً من الجنون!!

ـ هل هذا تهديد مبطن؟! إنك قادر على وضع حد لقلقي. لقد مضى على علاقتنا أربع سنوات. لقد أصبحتُ في الثلاثين.

ـ لا يعني هذا الأمر شيئاً بالنسبة إليّ ما دمتُ مقتنعاً بمن وقع اختيار قلبي عليها.

ـ الحب لا يكفي. العلاقة التي تظلّ معلقة في أهداب المجهول لا بدَّ من أن تسقط يوماً في بئر القطيعة.

لم تكن تحسّ بالطمأنينة إلا حين تلقي رأسها في حضن أمها،

ولذلك كانت ترتجف رعباً من مجرّد فكرة فقدها. كانت تلتهي أحياناً عن همومها بمكالمات ناصر عندما يهاتفها بين حين وآخر. لديه مهارة فائقة في احتواء أحزانها وإبعادها عن عالمها المشوش، وقد صارحها في واحدة من مكالماته بأنه يكنّ لها مشاعر خاصة وأن لها في قلبه مكانة كبيرة. أجابته بأنها تعتز بصداقته، لكن الصداقة شيء، والحب شيء آخر. أجابها بنبرة هادئة:

ـ لقد علّمتني الحياة أن مفاجآتها تتناقض كلياً في كثير من الأحيان مع مساراتنا التي نخطط لها. أنا رجل لا يعرف اليأس.

ردّت عليه بنبرة طافحة بالوجع:

ـ يمنحنا التصاق اليأس بأفئدتنا أحياناً، الشجاعة على التخلص من أشياء لصيقة بنا نجد أنفسنا عاجزين أمامها.

ـ هل هذه فلسفة مبطنة؟

ـ بل هي وجه من أوجه الحقائق الخفية في الحياة.

* * *

اقترحت نشوى على غادة أن تسافر معها أسبوعاً كاملاً إلى باريس علّها ترفّه عن نفسها بعد الألم الذي تعرضت له جرّاء مرض والدتها. كانت مظاهر الشحوب واضحة على محياها. أبدت غادة تخوفها من ترك والدتها بمفردها، لكنها وافقت أمام إلحاح نشوى بعدما وعدتها بأنها ستترك مربيتها الأثيوبية عندهم في البيت لترعى شؤون والدتها. ولم يسترح قلبها ولم يهدأ بالها إلا بعد طمأنة أمها لها بأنها ستكون بخير في فترة غيابها.

قضتا أيامهما الأولى في باريس في التسوّق والتسكع في شارع

الشانزليزيه والجلوس في المقاهي ومراقبة المارة الغادين والرائحين، والتنقّل بين مطاعم باريس الراقية. ضحكتا من قلبيهما، واستعادتا الكثير من مشاهد طفولتهما. كانت غادة تكنّ الكثير من المودة لصديقتها متمنية أن تترك الطريق الذي اختارته لحياتها. وكلما فاتحتها بهذه السيرة، تتغيّر سحنة نشوى وتطوف سحابة من الحزن في وجهها راجية منها أن تُغيّر مجرى الحديث.

قالت لها نشوى في أحد نقاشاتهما:

ـ لا أعرف سر قلقك عليّ!! إن حياتنا متقاربة. أنتِ تعطين باسم الحب وأنا أعطي لأنني أكفر بالحب. تفكيري منطقي، أليس كذلك؟! أريد أن أؤكد لك حقيقة غائبة عنك. أعتقد أن كفتي سترجح في النهاية، أتدرين لماذا؟! لأن قلبي ما زال معي. أما أنتِ فقلبك ينزف كل يوم آلاف المرات. اسمعي نصيحة صديقتك وراعي قلبك الرقيق الصادق الذي ألف العيش في قوقعة الخوف.

* * *

باحت غادة لنشوى بقلقها من عدم اتصال طلال بها منذ ثلاثة أيام وعدم ردّه على اتصالاتها المتكررة. وزاد من توترها أن هاتفه الخلوي خارج نطاق الخدمة طوال الوقت. حاولت نشوى تهدئتها وتبرير الأعذار له باضطراره إلى سفر مفاجئ أو بسبب ضغوط في العمل، لكنها هاتفت في الخفاء أحد معارفها ليتقصّى أخباره.

كانتا في جناحهما في الفندق تأخذان قسطاً من الراحة بعد ساعات قضتاها في التسوّق حين رنّ هاتف نشوى. تحدثت بصوت خافت وقد امتقع وجهها. استمرت المكالمة أكثر من عشر دقائق ثم أغلقت الخط.

سألتها غادة بنظرة فزعة:

ـ ماذا جرى، يحدثني قلبي أن هناك مكروهاً وقع لطلال؟!

ـ اسمعي يا غادة، وتمالكي أعصابك. لقد أوقف طلال عن العمل، ويخضع حالياً لتحقيق من السلطات حول قصيدة كتبها عن المرأة، تمَّ نشرها أخيراً، واعتبرت أن في أبياتها دعوة إلى الفجور، وتحرير المرأة من أعراف المجتمع. وهذا يثبت بالدليل القاطع استخفافه بتعاليم الدين الإسلامي. وقد طالبوا بحبسه وجلده في ميدان عام ليصبح عبرة لغيره. والغريب أن هناك حملة مسعورة عليه من بعض المثقفين المحسوبين على الخط الليبرالي.

انفجرت غادة في البكاء. أصرّت على العودة إلى جدة في اليوم نفسه. كانت منهارة. دار أمام ناظريها شريط ذكرياتها منذ لحظة سماعها صوته أول مرة إلى الساعات التي أمضتها معه قبل سفرها إلى باريس، وتاهت في غابة كثيفة من التساؤلات والحيرة بينها وبين نفسها: لماذا يسقط أحبائي من قطار عمري واحداً تلو الآخر؟! هل قُدر لي أن تظلّ مقلتاي رطبتين دوماً؟ يُقال إن السعادة ليست مطلقة وتنبع من دواخلنا، ولكن فؤادي قاتم، في كل ركن منه ورقة مطوية تحمل ذكرى أليمة، حتى غدا قلبي محطة لحزن مقيم لا يبارحه، وارتسمت على جدرانه صور باهتة مبهمة البصمات من الصعب فك طلاسمها!!

حاصرت فكرها وقائعُ من ذكرياتها مع طلال؛ تساؤلاتها له ورأسها مسترخ إلى صدره: هل الحب هو منبع السعادة الحقيقية، أم أن السعادة هي القدرة على الولوج في أعماق الآخرين؟!

كان طلال حاضراً بكلّيته بين ذراعيها، تهدهده كطفل لها لم يعش في رحمها، بل حملت به وولدته في قلبها. كانت تتخيله أمامها، يسرّح يديه في شعرها، ويُسمعها قصيدته التي تحترمها كونها امرأة، فهوت به إلى مقصلة رجال الدين. كانت تراه أمامها، ينفث دخان سجائره في وجهها، ويحرّضها على أن تحترم أنوثتها وحرّيتها. كانت تتخيل نفسها تسأله وهو يجيبها:

ـ من الصعب أن نضع السعادة في وعاء ونرتشف منه صباحاً ومساءً لكي نُصاب بتخمة الفرح. تتمثل السعادة في رأيي في تلك اللحظات التي نقتنصها من أعمارنا، تلك التي نضم فيها أحلامنا بين ضلوعنا ونخلد إلى نوم عميق. السعادة أن نحسّ بمن نحب حتّى لو كانوا في أقاصي العالم. السعادة أن نسمع وقع أقدام أحبائنا الذين يعيشون في أفئدتنا حتّى لو كانت تفصلنا عنهم آلاف الأميال.

ـ من أنا بالنسبة إليك. هل أنا حلم أم واقع؟!

ـ أنتِ حلم معلّق على باب قلبي، مثل المصباح الذي نعلّقه في سقف حجرتنا لكي ينير ظلمتها.

ـ ما الذي دفعك إلى حبي؟!

ـ الحب يا حبيبتي لا يعرف تفسيراً. أتعرفين أين يكمن جمال الحب؟! في هذا الاختيار العشوائي الذي يجعلنا نتعلّق بإنسان ما دون أن نُدقق في مزاياه ونُنقّب عن عيوبه. تسقط مشروعية الحب يوم نُعلّق اختياراتنا على قاعدة الشروط والشروط المضادة.

ـ هل هناك حب ينبت خارج تربة المشروعية؟!

ـ نعم، لكنه لا يُعتبر حباً. الحب الذي يخضع للتصنيف وينزلق إلى دَرك المصالح، له مسميات أخرى. الحب الحقيقي يتمثّل في حرّيتنا المطلقة على اختيار من نحب.

* * *

صدر أمس قرار بحبس طلال ستة أشهر. ذكرت الصحف المحلية خبراً مقتضباً عن إقالة نائب رئيس تحرير «المرايا». أجهشت غادة بالبكاء وهي تقرأ الخبر. رجت صديقتها نشوى أن تدبر لها موعداً لزيارته في السجن. رفضت نشوى الأمر بشدة، وحذّرتها من أن مثل هذا التصرف الطائش سوف يضرّ بسمعتها، ويؤثر في عملها في الجريدة. رضخت لمطلب نشوى على مضض. ولكنها استمرت في تقصّي أخباره من بعيد. طمأنتها نشوى إلى أن عدداً من المثقفين يسعون لدى السلطات إلى إخراجه من السجن بعد أن نجحوا في إلغاء حدّ الجَلد، لكن محاولاتهم باءت بالفشل. أمضى طلال شهوره الستة من دون أن تنقص يوماً واحداً لأنه اختار الكتابة عن «تابو» مقدس محظور الولوج إليه والتحدث عنه: حقوق المرأة!!

(٩)

رفض طلال بعد خروجه من السجن استقبال أصدقائه ومعارفه. حتّى الهاتف لم يعد يرد عليه. وحدها والدته وإخوته كانوا يزورونه للاطمئنان إليه. لم تره غادة بعد خروجه. كانت تهاتفه يومياً ويجيبها باقتضاب معتذراً عن مقابلتها بصوت حزين منهك يائس، مما ضاعف من أوجاعها. كانت متحرّقة إلى رؤيته، الذوبان بين ذراعيه. صار طيفه يلوح أمامها صباحاً ومساءً، وكثيراً ما كانت تسأل نفسها وهي تأوي إلى فراشها: كم هو غريب الحب. كيف يمكن أن يُغيّر بسرعة مذاق حياتنا؟! كيف يجعلنا في لحظة في أعلى قمم السعادة، ثم يهوي بنا في لحظة أخرى إلى سفح التعاسة؟! وافق طلال على أن يراها، بعد مرور ثلاثة أشهر وبإلحاح مستمر منها. لم تصدق أذنيها. أحسّت بقلبها يحلّق في سماء الفرحة. سترتمي أخيراً في حضنه وتنهل من رحيق حبه. تواعدا على اللقاء مساءً. تهيأت للقائه كأنها تراه للمرة الأولى. طلبت إلى مصفّفة الشعر أن تقصّ لها شعرها قصة جديدة. ابتسمت وهي تتابع بعينيها انفراج المقص وهو ينقضّ على خصلات شعرها من دون رحمة. اختارت ثوباً بنفسجي اللون يُظهر

مفاتن جسدها. كان وزنها قد نقص عدة كيلوغرامات وبهتت نضارة وجهها فعالجت شحوبه بالمساحيق. كانت مثل عروس تتزين لليلة عرسها. نظرت أمها إليها بانبهار وسألتها وهي تتأهب للخروج:

ـ لِمَ كل هذا الاحتفاء بزينتك؟!

ردّت عليها بغبطة:

ـ أنا ذاهبة إلى حفل خطبة إحدى زميلاتي في العمل.

كانت تضطرب دقات قلبها كلما ازدادت قرباً من باب شقته. عندما فتح لها الباب فاجأها منظره. لم تصدق أن الواقف أمامها هو طلال حبيبها. عيناه غائرتان. شعره ضربه الشيب. قامته انحنت قليلاً نتيجة هزاله الشديد. لم تتمالك نفسها. انفجرت في البكاء وارتمت على صدره. تعانق جسداهما في حميمية عنيفة. كأن حبهما كان يحتاج إلى عاصفة قوية لتتحرك أمواجه الساكنة والراكدة. اشتمّت غادة وهي غارقة في بحيرة النشوة، رائحة حزن في أنفاسه، قبلاته، لمسات يديه، نظرات عينيه. كان وجع التجربة منتشراً في خلايا جسده كلّها.

وضعت رأسها في حجره كعادتها، وأخذ يعبث بخصلات شعرها كما كان يفعل دوماً، وأطلق زفرة طويلة قائلاً:

ـ أتدرين يا غادة، كنت الشعاع الذي أضاء ظلمة سجني. كلما تملّكني اليأس كانت صورتك تحضرني. إذ ذاك فقط كانت تتسرب الطمأنينة إلى قلبي وتهدأ أوجاعي.

ـ طلال، حبيبي، حاولْ أن تُسقط هذه الذكرى الأليمة من

حياتك. لا تسجن نفسك داخل زنزانة الماضي، ولا تجعلها أسيرة له إلى نهاية العمر.

ـ أُسقطها!! بهذه السهولة!! غادة، هناك جرح غائر ما زال ينزف في أعماقي. أنا محبط. هل تعرفين ماذا يعني أن يخيب أملك في من كنتِ تأملين منهم خيراً؟! ألم تقرئي الأسماء التي هاجمتني؟! إنهم من الطبقة نفسها التي أنتمي إليها، ويُقال إنها طبقة المثقفين. ما يحزُّ في نفسي أكثر أن بعض الأقلام التي نهشت فكري، هي نفسها التي أخذتُ بيدها في بداياتها وساندتها لكي تأخذ فرصتها في عالم الكتابة، وعندما أصبحت لها أظفار وأنياب كنتُ أُولى ضحاياها. يوجعني قلم المثقف الذي نهش اسمي وأدبي، ورماني في دَرك الفسق. ويؤلمني أكثر أنني اضطررت إلى تصديق المقولة الرائجة بأن المثقفين أعداء بعضهم بعضاً!

ـ ولكن، لا تنسَ أن هناك أيضاً أقلاماً نزيهة وقفت إلى جانبك ودافعت عنك.

ارتفع صوته قائلاً بحدّة:

ـ أنا لم أرتكب جريمة لكي أُعاقَب عليها!! لم أكن خائناً لوطني. لم أستخفّ بديني. لم أضرب بعرض الحائط القيم والأخلاق التي تربيت عليها!!

ـ إنه قدر مكتوب. يجب أن تتحدّى الظروف وتقضي على جراحك. من غير الممكن أن تقف بسلبية تتفرج على مصيبتك. اعتبرها تجربة مريرة وانتهت. ابدأ من جديد.

نظر إلى غادة قائلاً بصوت منكسر:

ـ أفكِّر جدياً في الرحيل.

أطلقت غادة شهقة:

ـ ماذا؟! ترحل؟! هل جُننت؟! ليست هناك بدائل عن الأوطان. الوطن أُم قدرية. الأوطان مثل أمهاتنا وآبائنا ليس لنا يد في اختيارهم؛ مثل لحظتَي ميلادنا وموتنا، لا نملك حيلة في تحديد زمن قدومنا إلى هذه الدنيا ولا لحظة رحيلنا عنها!!

ـ عندما يضيق حضن الوطن بأبنائه، يفقد الإنسان القدرة على التنفس!! تتلف رئتاه من الجو الملوث المعبّأ في فضاء حجرة نومه!! ألا يقولون حيث تكون الحرّية يكون الوطن.

ـ نستطيع بإرادتنا تجاوز المحن. تعلمتُ منك مواجهة الصعاب وتحدّي السلبيات وأن لا شيء اسمه مستحيل. أليس هذا شعارك؟!

ـ يظهر أننا ننسى هذه الشعارات حين تنزلق أقدامنا إلى هوّة الخذلان. إنني إنسان يا غادة، إنسان له لحظات ضعف مثل كل البشر.

ـ لن أدعك ترحل. لقد ارتبط مصيري بمصيرك منذ اللحظة التي التقينا فيها، لستَ وحدك من تملك الحق في اتخاذ هذا القرار.

* * *

لم يعد طلال ذلك الرجل الاجتماعي، الخفيف الظل. انصرف عن نَظْم الشعر، ورفض العودة إلى الكتابة في الصحف والمجلات، واعتذر عن تلبية الدعوات للمشاركة في ندوات

ومؤتمرات. كان مثل زوج طلّق زوجته طلاقاً بائناً لا رجعة فيه نتيجة ما سببت له من آلام نفسية على الرغم من حبها الذي ما زال يسكن قلبه!! أصبحت غادة تراقبه بقلق، وتتوجّس خوفاً من أن يُنفّذ قراره ويتلاشى وجوده من حياتها.

* * *

دخلت دلال مكتب غادة حاملة مظروفاً صغيراً وقدمته إليها.

سألتها غادة:

ـ ما هذا؟!

ارتسمت على شفتيها ابتسامة مشعّة:

ـ افتحيه.

كان بطاقة دعوة لحضور حفل زفاف دلال على أحد كبار رجال الأعمال في جدة. دققت غادة في اسم العريس. كان بالفعل الشخص الذي ذكرته لها نشوى.

ـ مبروك، أتمنى لك التوفيق.

ـ أشكرك، هناك سبب آخر دفعني إلى الحضور: تقديم استقالتي.

علّقت غادة بنبرة مبطنة بالاستخفاف:

ـ وماذا عن طموحاتك إلى تحقيق الشهرة. هل ستتنازلين بسهولة عنها؟!

ـ لا، لم أصرف النظر عنها، لكن الحياة الاجتماعية التي سيتيحها لي زواجي، ستفتح أمامي دورباً أشد بريقاً.

تسلّمت منها غادة خطاب استقالتها، رمته في الدرج. تنفّست الصعداء وهي تراها تلملم أغراضها من مكتبها وتودع فتيات القسم.

* * *

تفاقمت مشاكل غادة في العمل في الآونة الأخيرة بعد أن شغل مكان طلال نائب رئيس تحرير جديد. لم يكن يملك الحس الصحافي الذي كان يتصف به طلال، وكان يصرّ على التدخّل في كل صغيرة وكبيرة في عملها بالقسم، إلى درجة تحديد المواضيع التي يجب أن تكون مادة التحقيقات. وكلما فكرت في تقديم استقالتها نتيجة الضغوط التي تتعرض لها، تتراجع وتتذكر عبارات طلال بأن على الإنسان أن يحارب من أجل الاحتفاظ بالأشياء التي يحبها، والمبادئ التي يؤمن بها، والطموحات التي يريد تحقيقها، فتزداد صلابةً وعناداً في تحدّي واقعها بالرغم من التصدعات التي أصابت جدرانه.

* * *

رنّ جرس الهاتف في منزل غادة صبيحة يوم الجمعة. كان الطالب ناصر. مضى أكثر من أسبوعين لم تسمع في خلالهما صوته. أخبرها بسفره إلى أبوظبي للمشاركة في أمسية قصصية، وراح يحدثها عنها وعن تجاوب الحضور معه، وكيف أثنى النقاد على قصصه. ثم سألها عن أخبارها وصحة والدتها، فحكت له عن المضايقات التي تتعرض لها في عملها، وكيف عليها أن تواجهها وأن تتفرغ لعملها في آن. فجأة قال:

ـ أعرف أن الوقت غير مناسب، ولكن هل يمكنني دعوتك إلى العشاء؟!

لم تعلّق غادة!! تابع قائلاً:

ـ هناك أمر هام أودّ أخذ رأيك فيه. غادة، اعذريني إذا ناديتك باسمك مجرّداً!! أريد أن تعلمي أنني لست من الرجال الذين اعتادوا استنشاق عبير زهرة جديدة عند إشراقة كل صباح!! أنت تدركين جيداً أن لك في قلبي مكانة خاصة. غادة، من دون مقدمات، هل تتزوجينني؟!

باغتها عرضه. اضطربت حواسها. تهدّجت أنفاسها. تمالكت نفسها وقالت:

ـ لقد فاجأتني.

ـ سأمهلك فترة كافية للتفكير. خذي وقتك.

صمت قليلاً ثم تابع بنبرة حانية:

ـ غادة، أنت تعلمين أنني أحبك، وسأكون أسعد رجل في هذا العالم لو قبلتِ أن تكوني زوجتي. أعلم أن الحب منحة قدرية، لذا لن أعتب عليك لو رفضتِ عرضي، وثقي بأنني سأظلّ الصديق الوفي.

لم تنم تلك الليلة. لأول مرة يشدّ ناصر تفكيرها وتجد نفسها تدور في فلك شخصه. حاورت نفسها في صمت: لماذا تخذلنا الحياة في أمانينا؟! لماذا تهيل التراب على أحلامنا ونحن في غفلة عنها؟! هل الحب حالة مَرَضية مستعصية نقف أمامها موقف

العاجز؟! هل الحب إكسير الحياة، نستميت من أجل الوصول إليه لنشعر بمباهج الحياة؟! لماذا نحن قليلو الحيلة في اختيار من نحب؟! لماذا نشقى بالذين نحبهم، ويشقى غيرنا بحبنا؟! كم هو غريب منطق الحياة!!

لا تدري لماذا تذكرت رواية «ذهب مع الريح»!! هل ستصبح هي صورة متكررة من بطلة الرواية التي ظلّت تبحث عن الحب وهو واقف ببابها، وحين اكتشفت الحقيقة كان الوقت قد فات، وقرر حبيبها مغادرة حياتها بعد أن ملَّ طرق بابها واستجداءها لنيل حبها؟! تُرى، هل المرأة بطبعها تلهث خلف الرجل الذي يُعذّب قلبها ويدمي فؤادها، ولا تأبه لمن يُظهر لها عواطفه ويستميت من أجل إرضائها؟!

* * *

عرجت غادة بعد انصرافها من عملها على منزل نشوى، لترتشف فنجان قهوة معها. بدت ساهمة، صامتة. سألتها نشوى عن سبب هذا الشرود!!

ـ لقد طلبني للزواج.

صاحت نشوى بفرح:

ـ أخيراً رفع الراية البيضاء!!

ـ من تقصدين؟!

ـ طلال بالطبع.

أطلقت غادة تنهيدة طويلة قائلة:

ـ أقصد ناصر العامر.

ـ حسناً، لم أذهب بعيداً. لقد أخذتُ فكرة حسنة عنه من خلال حكاويك. ألم تؤكدي لي دوماً أنك لن ترتبطي إلا بشخص صفحاته بيضاء وله مواقف بطولية؟ إنني أرى أن كل المواصفات منطبقة على هذا الرجل.

ـ وطلال؟!

أجابت بتذمّر:

ـ طلال... طلال... إنه في عالم آخر يا غادة. سترتكبين غلطة عمرك لو رفضت ناصر. اسمعي يا صديقة العمر، لا تمنحنا الحياة الفرص كل يوم. خذي الرجل الذي يحبك وإلا فستظل قائمة تنازلاتك مفتوحة على مصراعيها إلى ما لا نهاية. ماذا فعل لنا الحب؟! انظري إليّ. حوّلني الحب إلى إنسانة تريد الانتقام من كل رجل تلتقيه، بعد تجربتين مريرتين في حياتي.

ـ لا تخدعي نفسك. أنتِ وضعت نفسك في هذه الدنيا. مشكلتنا نحن البشر أننا نخطئ مع سبق الإصرار والترصّد، ثم نُعلّق أخطاءنا على مشجب الظروف. لن أكفر بالحب مثلك. الحب هو الذي يُشعرنا بوجودنا ويمنحنا القوة على العراك في ساحات الحياة.

ـ لكنه خطف منك أجمل سنواتك!!

ـ لكل شيء في الحياة نقيضان. ألا تستحق اللحظات الجميلة التي نعيشها أن نتحمّل بعض الألم من أجلها؟!

ـ دفعتُ كثيراً من عمري ثمن لحظات النشوة التي تتحدثين عنها. نظرتانا في الحياة لن تلتقيا يوماً. أتعرفين ما الفرق بيني

وبينك؟! أنا لم أعد أسمح لمشاعري بأن تُسيّرني، وأنت ما زلت كما بدأت، تتركين قارب عواطفك يجرفك إلى وسط البحر، حتّى تلفي نفسك ذات يوم غارقة في قاعه المظلم من دون أن يسمع صوت أنّاتك أحد!!

كان تفكير كل واحدة منهما مغايراً لتفكير الأخرى، وانتهى النقاش كالعادة بالوقوف عند جدار عال من الصمت!!

* * *

ألحّت راوية على غادة بالحضور إلى منزلها ورؤية مرسمها الخاص الذي بناه لها والدها. وعدتها بالمرور بها عند عودتها من العمل. كانت الساعة قد قاربت الخامسة، وخبت حرارة الجو قليلاً مع ذبول وهج الشمس. يوجد المرسم في ركن بحديقة المنزل، وهو مكوّن من غرفتين: الغرفة الكبرى عُلّقت فيها لوحات بمقاسات متباينة، أُسند بعضها إلى حوامل خشبية، وصُفّ بعضها الآخر فوق بعضه بطريقة عمودية عند إحدى الزوايا. والغرفة الصغرى خصصتها للاستراحة، وضعت فيها أريكة عريضة مع مقعدين وثيرين وبُطنت جميعها بقماش مزركش زاهي الألوان.

دارت غادة على اللوحات وتأملتها بتمعّن، ثم جلست وراوية تحتسيان القهوة.

سألتها غادة:

ـ ألمس تناقضاً في معظم لوحاتك. تستخدمين كثيراً اللون الأحمر والألوان الدكناء. الأحمر يرمز إلى الإثارة والجنس، والألوان الداكنة تُوحي بنظرة تشاؤميّة.

ـ لا أعتقد أن هناك تناقضاً. النفس البشرية بطبعها في حالة صراع مع نفسها!! هي في حالة مواجهة دائمة مع التقاليد والقِيم الأخلاقية من ناحية، ومع نزعاتها الداخلية من ناحية أخرى!! إنني أعبّر من خلال لوحاتي عن الغرائز الفطرية الكامنة في الأعماق البشرية، وأحاول في الوقت نفسه إبراز الأجزاء القاتمة التي تُعبّر عن هواجسنا وخيبات حياتنا.

ـ ألا تخشين تعليقات النقاد؟!

ردّت بنبرة متهكمة:

ـ أنا لا أرسم من أجل النقاد. وأين هم هؤلاء النقّاد المتخصصون أصلاً؟! إنني أنزع بريشتي فتيل الثورة لكل ما يعتمل في داخلي من انفعالات، ويوضّح مرئياتي في الحياة. وأعتقد أننا متفقتان في هذا المنحى. أنت تعبّرين عن رؤيتك الخاصة بقلمك، وأنا أعبّر بألواني. والآن قولي لي صراحة: ما رأيك في لوحتي الأخيرة؟! أتدرين ماذا أسميتها؟ «إبحار»!

ـ سبق وأكدت لك أنني معجبة بالخط السوريالي الذي تنتهجينه في لوحاتك. في رأيي، يعطي هذا النوع من الفنون الفنان مساحة واسعة للإفصاح عن مكنونات نفسه.

قفز الحوار بينهما إلى خارج أسوار الفن، وتطرقتا في حديثهما إلى الأدب السعودي.

سألتها راوية فجأة:

ـ ما رأيك في قصص ناصر العامر؟!

ـ يبهرني أسلوبه في كتابة القصة القصيرة. يذكّرني بأدباء

أميركا اللاتينية الذين أحدثوا ثورة أدبية من خلال الواقعية السحرية التي ابتدعوها في رواياتهم.

قالت راوية:

ـ هل تعتقدين أنه بطل كل قصصه؟!

ـ الإنسان ابن بيئته، لكن لا يوجد شرط إلزامي للأديب لأن يكون هو المحور الرئيسي لكل قصصه!! يمرّ أشخاص أحياناً كثيرة بحياة الأديب ويتركون بصمة قوية عنده وتلتصق وجوههم بجدار ذاكرته، فيسكب أرواحهم على الورق حتّى تكفَّ أشباحهم عن الظهور ليلاً في مخدعه وإقلاق نومه. يقولون إن الكتابة عملية قتل يومية، يتخلّص فيها الأديب من كل الشخصيات التي يريد بيعها في مزاد علني!!

ـ ليس جميعهم أطيافاً وهمية. هناك أشخاص نصنع وجودهم بأيدينا ونمهد لهم السبل لكي يسحبونا إلى عالمهم، حتّى يصبحوا مع مرور الوقت جزءاً لا يتجزأ من واقعنا.

كانت جلسة ممتعة لكل منهما، وأيقنت غادة من خلال أسئلة راوية «المبطنة» أنها كانت تريد أن تتأكد إن كانت تربط غادة علاقة خاصة بناصر، ومدى عمق هذه العلاقة، على الرغم من أنها لم توجّه إليها سؤالاً مباشراً عنه.

(١٠)

طلب رئيس التحرير إلى غادة أن تُقدّم إليه مقترحات جديدة لتحديث القسم، وتكتب له تقريراً مفصلاً عن كل صحافية تعمل فيه. كرّست غادة جلَّ وقتها لتقدّم عملاً مميزاً، وانتهت بعد أسابيع من الجهد والتعب والعمل المتواصل من تقديم المقترحات. شعرت كأن حملاً ثقيلاً انزاح عن صدرها. تذكرت نشوى، واكتشفت أنها في غمرة انشغالاتها لم تلتقها طوال هذه المدة. اندهشت لعدم سؤال نشوى عنها!! فمن طبعها أن تسأل عنها إذا تأخرت عن الاتصال بها. طلبتها على هاتفها الخلوي، كان مقفلاً. هاتفتها على البيت، ظلَّ هاتفها يرنّ طويلاً ثم جاءها صوت الخادمة تخبرها بأن سيدتها متوعكة ولا تستطيع إيقاظها بناءً على تعليماتها.

أحسّت غادة بالقلق. أمرت السائق بتحضير السيارة للذهاب إلى منزل نشوى. وجدتها مكوّمة في سريرها. صُعقت لمنظرها: وجهها شاحب، جسدها هزيل، تَرْقُوَتاها بارزتان وقد فقدت الكثير من وزنها. لم تنتبه إلى وقع خطى غادة. جفناها مطبقان، وأنفاسها متهدجة. هزّتها غادة برفق. فتحت نشوى عينيها بتثاقل:

ـ غادة، أخيراً جئت. أوحشتني.

سألتها غادة بنبرة جزعة:

ـ ماذا بك؟! سأستدعي الطبيب.

أجابتها نشوى بتثاقل:

ـ لا داعي، أعرف ما بي.

بلعت ريقها معلقة:

ـ ماذا جرى؟! بالتأكيد هناك شيء تخفينه عني.

نظرت نشوى في عيني صديقتها ثم غطت وجهها بكفّيها وأجهشت بالبكاء:

ـ غادة أنا مصابة بلوكيميا في الدم.

شهقت غادة:

ـ ماذا؟ أنتِ تهذين.

ـ لم أكن صادقة مثل اليوم.

دمعت عينا غادة. دنت منها وأخذت رأسها ووضعته في حجرها، وأخذت تُمسّد لها شعرها قائلة بنبرة حانية:

ـ ماذا حصل؟! كيف عرفت؟! وهل تأكدت بالفعل؟!

ـ أخبرني الطبيب أن أمامي أسابيع قليلة. آه، كم أود الموت اليوم قبل غد. لقد مللت الانتظار. صعب ترقّب الموت. إنه أصعب من الموت نفسه، يجعل الإنسان يموت كل يوم آلاف المرات. أتعرفين ما أجمل شيء في الموت؟! أن يأتينا ونحن في غفلة من أمرنا.

ـ لا تيأسي من رحمة اللّه. هناك كثيرون غيرك أصيبوا بهذا المرض وكتب اللّه لهم حياة جديدة.

ـ دعينا من سيرة الموت. حدثيني عن الجانب المضيء في الحياة؛ عن الحب. لقد اشتقت إليه. أخبريني: هل ما زال عرض ناصر قائماً؟!

ـ كنت في الأسابيع الماضية مشغولة، وكانت مكالماتنا مقتضبة جداً. لكنه أخبرني بأنه سيترك لي فترة كافية للتفكير.

ـ اسمعي يا غادة. لقد خسرتُ حياتي ولا أريدك أن تخسري أنت الأخرى حياتك. لا أريد أن تضيّعي عمرك في اللهث خلف سراب زائف. يكفي حجم الفواجع التي تجرعناها. يجب أن تفكّري جدياً في اتخاذ القرار المناسب لحياتك وأن يكون لك أسرة صغيرة. لا أريدك أن تعيشي شبابك تتسولين الحب. الحب الذي يعيش في الملاجئ على صدقات المحسنين لا يمكن أن يصبح الملاذ الآمن للمرأة.

ـ آه، يا صديقتي، هل تعتقدين أننا نملك القدرة على التحكم في مشاعرنا؟ لو كان الأمر كذلك لأمسك البشر مقاليد سعادتهم بأيديهم!!

ـ أَعطي ظهرك للحياة تجديها تركض خلفك. إنه رجائي الأخير فقد لا نلتقي ثانية.

ـ كفّي عن هذا الكلام التشاؤمي.

ـ لم يعد في حياتي متسع للتفاؤل.

أشارت نشوى بيدها إلى المصحف الموجود إلى جانبها على

المنضدة. طلبت إلى غادة أن تقرأ لها بصوت مسموع «سُورة الزُّمر». قرأت غادة الآيات بصوت خافت، وصلت إلى الآية ﴿قُلْ يَـٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾. انفجرت نشوى بالبكاء والنحيب. توقفت غادة عن القراءة لتهدئتها. قالت لها وعبراتها تنساب بغزارة:

ـ هل تظنين أن اللّه سيقبل توبتي بعد كل الذي فعلته في حياتي؟!

ـ اللّه غفور رحيم.

ـ آه، يا غادة، لكنه أيضاً شديد العقاب. ادعي لي يا غادة.

ـ سأدعو اللّه أن يغفر لنا جميعاً. كل البشر يخطئون وإن تفاوتت درجات أخطائهم. يحمل كل إنسان منا ثمرة خطيئته في أحشائه، وخير الخطّائين التوابون.

ـ غادة، أريدك أن تبيتي عندي الليلة. أخاف أن أموت وحيدة.

اتصلت غادة بوالدتها مخبرة إياها بأن نشوى مريضة وستضطر إلى المبيت عندها، وبقيت إلى جوارها حتّى استسلمت للنوم.

* * *

ظلّت غادة تعود صديقتها يومياً، تمكث معها ساعات طويلة. كان صراخها يصل إلى الخارج عندما يشتد عليها الألم، ولم تعد المسكّنات تُؤثّر في جسدها. توفيت بعد شهرين. كانت قد أعطتها مجوهراتها وأوصتها بأن تبيعها وتهب ثمنها للمؤسسات والجمعيات

الخيرية، وتستقطع جزءاً منه لدفع صدقة جارية لها. وطلبت إليها أن تُوزّع ملابسها على الأربطة، وتركت فيلتها ومدخراتها في البنك لأخيها لأنه وارثها الشرعي الوحيد.

* * *

تغيّر كل شيء في حياة غادة بعد موت صديقتها. تسرّب الزهد إلى أعماقها. صارت تختلي طويلاً إلى نفسها، وتستعيد شريط ذكرياتها منذ لحظة طلاق والدتها مروراً بتلك الغرفة الرطبة التي هتك فيها زيد طفولتها مرّات ومرّات حتّى رحيله عن حياتها، وعلاقتها بوالدها التي كانت دوماً في حالة مد وجزر. وتراءى لها جدار الجليد الذي ما زال قائماً بينها وبين إخوتها من أبيها، والمواقف التي مرّت بها في الجريدة طوال هذه السنوات، وتفاصيل علاقتها بطلال منذ لحظة البداية وما تخلّلها من تقلبات، ولحظة سماعها خبر سَجنه وتحوّل شخصيته إلى النقيض، ثم تسلّل ناصر خلسة إلى فناء حياتها.

كانت تشعر بوحدة قاتلة وبرغبة في الصراخ والتنفيس عمّا يحتقن داخلها، فتأمر السائق بأن يأخذها إلى الكورنيش، فتجلس عند إحدى الصخور، وترهف السمع إلى صخب البحر، مخاطبة هدير أمواجه: هل من الممكن أن تسبق نهاياتُنا بداياتِنا؟! لماذا نهدر مشاعرنا بغمسها في بحيرة التوتر والقلق، لنكتشف مع توالي الأيام أن ما نتوجس منه لا يستحق كل هذا الكمّ من الأحزان؟! يلوح أمامها طيف نشوى وتخترق طبلة أذنيها رنة ضحكتها وهي تنصحها: الحياة يا صديقتي أقصر من أن نُقيدها بسياج الجديّة.

إنها ستنتهي في غمضة عين. اسمعي نصيحة صديقتك واستمتعي بكل دقيقة من عمرك. غداً سننام طويلاً. تحسّ بالحنين إلى صديقتها، ويمرّ في ذاكرتها شريط طفولتهما معاً، ومنظر نشوى بجديلتيها السوداوين ونظرات عينيها تشع منهما الفرحة، وضحكتها الصاخبة تنمّ عن روحها المداعبة، ونكاتها الخارجة على اللباقة الاجتماعية، وهيئتها الضامرة قبل أن تودّع هذه الدنيا.

بدأ يتسرب إلى أعماقها وسط دوامة الفواجع شعاع من الطمأنينة. ألفت نفسها بعد أعوام من العراك في حالة تصالح مع ذاتها. كأنها كانت تحتاج إلى كل هذه الفواجع حتى تتصالح مع نفسها. كأنه كان عليها أن تبكي طويلاً، وتتعذّب طويلاً، وتحب وتشقى في حبها طويلاً، حتى تعرف ذاتها أكثر، وحتى تعرف قلبها أكثر. كأنها كانت تحتاج إلى كل هذه العواصف تعبث بكيانها وروحها، لتقف مرة واحدة عارية أمام ذاتها. تساءلت بينها وبين نفسها: تُرى هل نحتاج إلى زلزال عنيف يهزّ بقوة حياتنا لكي نُعيد النظر في الكثير من مرئياتنا؟! هل كنتُ أحتاج إلى موت نشوى حتى أُعيد ترتيب أوراق حياتي من جديد؟!



رسالة

(١)

مرّت ستة أشهر على وفاة نشوى. بدأت تفيق من غيبوبة أحزانها. كانت قد وعدت راوية بحضور افتتاح معرضها الجديد. بدت راوية كزهرة يانعة وهي تتنقل بين المدعوات وعلى وجهها تومض سعادة لافتة. استشفّت غادة أن ثمة أمراً استجدّ في حياتها وقد ظهر بوضوح في لوحاتها. هناك لمسة من البهجة المغموسة بالتفاؤل تنطق من رسومها. لم تعتد راوية في السابق استخدام الألوان الزاهية. توقفت غادة أمام لوحتها «إشراق». كانت تُعبّر عن معان كثيرة. بدا في عيني راوية سرٌّ تريد الانفراد بغادة والبوح به، وما إن انفضَّ الحضور حتّى أخبرتها أنها تريدها في موضوع هام. قررتا الذهاب إلى المقهى المجاور للمعرض لتناول القهوة.

جلستا في إحدى الزوايا. لم تستطع راوية الانتظار حتى تجلس: قالت بنبرة تشع منها البهجة ومن دون أي مقدمات:

ـ اسمعي هذا الخبر، الشهر القادم زفافي.

ـ صحيح؟! ألف مبروك، من هو سعيد الحظ؟!

ـ لن تصدقي، الأمر كله جاء صدفة. تعارفنا منذ ثلاثة أشهر تقريباً. رغب بنك جدة الدولي في شراء لوحتين من معرضي

السابق. وقد هاتفني المدير الإقليمي مبدياً رغبته في الحضور شخصياً إلى المعرض وانتقاء اللوحات. كانت النظرة الأولى التي أوصلتنا إلى هذه النهاية الجميلة.

سكتت هنيهة ثم أكملت:

ـ هو رجل ناجح ويحتل مركزاً اجتماعياً مرموقاً؛ مطلّق ولديه ثلاثة أبناء من زوجته الأولى، يعيشون جميعهم معها.

ـ أنت إنسانة طيبة يا راوية وتستحقين كل خير. لكن ماذا عن فنك؟! هل ستتركينه وتتفرغين لبناء أسرتك الجديدة؟! لقد سبق وتحدثنا مراراً حول هذا الأمر، وكنت دوماً تؤكدين رفضك الارتباط برجل لا يُقدّر فنك.

ـ اسمعي، سأعترف لك بسرّ، لم أبح به قبلاً ويشغل فكري. لقد تمنيت يوماً ناصر، لكنني بحاسة الأنثى أدركت أنه يميل إليك، وأحسست لهذا نحوك بالغيرة. وعندما التقيت محمد خطيبي، أيقنت أن مشاعري تجاه ناصر لم تكن حبّاً وإنما كانت إعجاباً بشخصيته وانبهاراً بسعة أفقه. اليوم، أنا سعيدة ومقتنعة باختياري. أتدرين ما الذي جذبني إلى محمد؟! تفهّمه لطبيعة عملي وصراحته معي. لقد أخبرني أن تعلقه بي نبع في البداية من إعجابه بفني، ثم تطور ليصبح إعجاباً بشخصي، وهو عازم على تصميم مرسم خاص بي في بيتنا الزوجي.

لم تخض غادة في موضوع ناصر، اكتفت بالقول:

ـ أتمنى لك التوفيق من كل قلبي.

* * *

عادت غادة إلى البيت كعادتها منهكة. الإعياء بادٍ عليها بعد يوم طويل من العمل. حيّت والدتها ودلفت إلى غرفتها. وما إن وضعت رأسها على الوسادة حتى فاجأتها الخادمة بالدخول وهي تحمل مظروفاً كبيراً. أخبرتها أن أحدهم جاء به صباحاً وأكد على وجوب تسليمه باليد إليها. قلّبت المظروف بين يديها، لم يكن هناك شيء مكتوب يشير إلى باعثه. فتحته، في داخله أوراق مطويّة، وما إن أفردت الصفحات حتّى ميّزت خط طلال الذي تعرفه حق المعرفة. وقد كُتبت في صدر الورقة الأولى عبارة بين قوسين «هذا ما بقي مني!!». أسندت رأسها إلى الوسادة وبدأت تلتهم السطور بلهفة.

(٢)

«غادتي، دعيني أنادك كما تعودت دوماً. عندما تقرئين رسالتي أكون قد لملمت أغراضي وودعت ذكرياتي ورحلت عن هذه الأرض التي ستظل حبي الكبير. أتخيل ملامحك الأخاذة وأنت تقرئين سطوري ودموعك تنساب بحرقة على وجنتيك. آه، يا حبيبتي، لو تعرفين كم كانت تعذبني غيمة الحزن التي كنتُ أراها رابضة في سماء عينيك. أعلم الآن لماذا تغزّل شعراؤنا العرب في العيون، لأن لغة العيون أصدق مؤشر عما يجري في دواخلنا. إنها اللغة الوحيدة في العالم التي تفضح خبايا النفوس. لقد اكتشفت متأخراً أن الحياة لا تستحق منا كل هذا القدر من الاهتمام، وأنها أكذوبة كبرى نساهم في صنعها حتّى تسحقنا بعجلاتها. لقد أخفيتُ عنك أنني كنت أسعى منذ فترة إلى الحصول على عقد عمل في أميركا، وقد نجحتُ بفضل أحد أصدقاء الدراسة، التقيته في فرنسا، وهو بالمناسبة يهودي مغربي الأصل، نزح أهله إلى فرنسا منذ أكثر من عقدين وأقاموا فيها، ثم تزوج بأميركية وحصل على جنسية بلادها. حرصتُ على ألاّ تنقطع صلتي به طوال هذه السنوات، وقد ساعدني على إيجاد منصب ملائم كأستاذ محاضر في إحدى الجامعات هناك، سأحاضر فيها

عن الأدب العربي، على الأقل أسلّط الضوء على إنجازات أجدادنا العظيمة بعد أن فشلنا كأمة في تتبّع خطواتهم. لا تعتقدي أنني خائن لعروبتي أو تنكرت لقضيتنا الكبرى فلسطين. ففي داخلي إيمان عميق بها. ألم تسمعي عن منظمات يهودية تهاجم الصهيونية وتندّد بالمستوطنات، وتُطالب بحق الشعب الفلسطيني في العيش على أرضه بسلام؟! أصبح صديقي واحداً من أكبر دعاة السلام في العالم. لذا فأنا أحترم صداقتي لهذا الرجل، لأن تجارب الحياة علمتني أن أتعامل مع الجانب المضيء في الإنسان.

حبيبتي، أريدك أن تسامحيني وكلّي ثقة بأن قلبك الكبير لا يعرف معنى الكره أو الحقد، وقادر دوماً على العفو، لأن القلوب التي تحب، صفحة غفرانها مفتوحة على مصراعيها كما يقولون. وكل ما أطمح إليه أن تتفهمي خلفية قراري، ولا تنعتيني بالنذل والجبان ولا تعتبري أنني قد تخليت عنك. أنا لم أخطط يوماً لهجرك. فمن الصعب على أي رجل أن يرشقك بسهام الغدر، أو يتسبب في خدش مشاعرك، لأن الصفاء والنقاء اللذين يشعان من داخلك يُحرّكان ضمائر أقسى الرجال، ويدفعانهم إلى إلقاء أسلحتهم عند قدميك دون أن يُبدوا أي مقاومة تُذكر.

هل تذكرين عبارتي التي قلتها لك بأن الأوطان عندما تضيق بأبنائها يتوجب حينها الرحيل؟! لا تتهميني بالجبن وأنني ألقيت سلاحي وأعلنت استسلامي سريعاً. أقسم لك إنني لم أكن يوماً ضعيفاً، لكن كما يقول أحد الحكماء: القلب المملوء حزناً، مثل الكأس الطافحة، يصعب حمله. وأنا فشلت في حمل أوجاعي على الرغم من أنني قاومتها مراراً، لكن كل محاولة كانت تنتهي

بمزيد من اليأس، فقررت في النهاية لملمة أشيائي والبحث عن وطن بديل. أراك ترفعين حاجبيك وتقلبين شفتيك تعبيراً عن احتجاجك على كلامي كعادتك حين ندخل في نقاش حول أمر من الأمور، وأتخيلك وأنت تصرخين في وجهي: «وهل الأوطان تُعوَّض؟!». كان هذا من نقاط الخلاف الرئيسية بيني وبينك. أنا على يقين تام بأننا لا نعرف قيمة أوطاننا إلا حين تغيب مشاهدها عن أعيننا، ونتشوق إلى رائحة ترابها وأدخنة منازلها، ويهزّنا الحنين إلى الأهل والأحباب والأصحاب. ولكنني أؤمن كذلك بأن الوطن معناه أمن واستقرار ونسائم حرية ترفرف في أجوائه. أسمعك تردّين بنبرة انفعالية: «نحن وطن آمن وشعبنا في أعماقه محب للسلام»، لكن الأمان من وجهة نظرك يختلف جذرياً عنه من وجهة نظري. أنا أرى أن الأمان يعني أن أجاهر بما أؤمن به، وألا أجلس صامتاً أتفرّج على أبناء وطني وهم يختالون أمام ناظري بأثواب مبهرجة فاقعة الألوان كالتي يلبسها المهرجون وهم يمارسون ألعابهم البهلوانية داخل قاعة السيرك وأمام جمهور المتفرجين!! لطالما اتفقنا على أن مشكلة مجتمعنا تكمن في كونه غارقاً في مستنقع الازدواجية: كل شيء فيه مُباح ما دام يتم في سرّية. وهذا ما كنتُ أمقته وما زلت!! نحن مجتمع ينضح بالتناقض. يقتدي أفراده بمسلك الشعراء الذين يقولون ما لا يفعلون. مناخ معبأ بالرياء والنفاق. كان لديّ حلم كبير، أن أرى أجيالنا الجديدة تعيش في رفاهية فكرية بكل ما تعنيه هذه الكلمة، فالقضية لا تنحصر في أرض وسماء وامتلاك بيت كبير بغرف واسعة وسيارة فارهة. هي أكبر من هذا بكثير. إنها أمور متشعبة،

ومتداخلة الرؤية. أنا لم أُخلَق لكي آكل وأنام وأنجب أطفالاً، وما زلت أؤمن بأن قيمتي كإنسان تنبع من قدرتي على التفاعل مع مجتمعي وعلى تغيير سطحه الراكد، وهو ما عجزت عن تحقيقه، وألقاني في هوّة الإحباط!! أتخيلك مرة أخرى وأنت تعلّقين بحدّة: «على كل فرد أن يتحمّل مسؤولية أفعاله». أليست هذه شعاراتك؟! من قال لك إنني فضّلت الفرار على مواجهة مشكلتي؟! ولكن قولي لي، باللّه عليك وبصراحتك التي عهدتها فيك، متى كانت الحقوق في عالمنا العربي ترفرف علانية على أسطح بيوتنا؟! متى كانت العدالة تعرف طريقها في طرقاتنا؟! إننا شعوب حالمة، وبمعنى أصحّ تعودت أن تحلم وتحلم حتّى نسيت من أين يبدأ حلمها وأين ينتهي!! الشهور التي قضيتها في السجن كسرتني وهزمتني!! أتعرفين ما معنى الكسر وما معنى الهزيمة؟! أن تري كبرياءك تتناثر شظايا على الأرض أمام كل الناس!! لقد أيقنت أخيراً أنني أحيا في مجتمع شديد القسوة ورافض لرياح التغيير حتّى لو كانت ستصبّ في مصلحته. وأصبحت لدي قناعة تامة بأن العرف أشد وقعاً من القانون في بلدنا، لذا فأنا متوجس مما سيحمله الغد لنا. وتذكّري ملاحظتي هذه جيداً: سيخرج يوماً ما من بين أظهرنا مارد متطرف يقوم برمي مادة حارقة على وجوهنا لتشويه معالمنا. وسنكون نحن السبب في تقوية شوكته وتسهيل خروجه من عنق الزجاجة. وهو ما يجعلني أؤكد لك أن مشكلتي لم تكن مع السلطة وإنما مع فئة دينية رأت أنني قد أذنبت حين تجاسرت وحاولت تحطيم القيود الصدئة التي توارثناها. ولكن إلى متى سنظل واقعين تحت سيطرة أعراف من صنع البشر وليست من

صلب شريعتنا؟! التهمة التي سُجنت من أجلها مضحكة مُبكية وجائرة في الوقت نفسه!! الدعوة إلى تحرر المرأة من القِيم الإسلامية، وأن أشعاري فيها دعوة مبطنة إلى الحرية الجنسية والاختلاط والسفور. حاولت إفهامهم أنني أحترم المرأة، وأن جُلّ همّي منصبّ على رفض تلك المحاولات المتحجرة لتحجيمها وإلغاء دورها في الحياة وإبقائها نصفاً مشلولاً. لكن كان التيار أعلى من مسافة رأسي وجرفني إلى وادٍ سحيق كاد يُودي بحياتي. لقد أخطأت بتدخّلي!! كان يجب أن أترك مهمة التغيير لك وللنساء من أمثالك اللواتي اخترن الوقوف في خط المواجهة.

أريد أن أحدثك قليلاً عن حسّي الوطني علّك تقتنعين بأنه ليس دخيلاً على فكري، بل هو لصيق بعقلي وفؤادي لأني تجرعت معانيه في طفولتي. فأسرتنا لها تاريخ وطني مشرِّف، سأقص عليك جوانب منه.

الأول: أعلن أبي يوم مقتل الملك فيصل الحداد في بيتنا، ورأيت لأول مرة دموعه تنحدر من مقلتيه، وسحنته يُخيّم عليها السواد. وعلى الرغم من صغر سني وقتئذ إلا أنني أحسست بالارتياح وأنا أشاهد أبي على هذه الحالة.

الثاني: يوم حادثة الحرم الشهيرة، حين سيطر «جهيمان العتيبي وجماعته» على ساحة الحرم المكّي الشريف، اجتمع أبي مع زمرة من كبار التجار وقرروا الذهاب إلى أمير منطقة مكة للتعبير عن تضامنهم مع الحكومة، واستعدادهم لتقديم أي نوع من المساعدة في هذا الظرف العصيب. أتعرفين يا غادة ماذا كان أبي

يردّد في مجلس العائلة بعد أن انتهت هذه الواقعة!! «لن تمر هذه الحادثة بسلام، وستؤثر في المستقبل سلباً في مجتمعنا، وستؤدي إلى إبطاء مسيرة التحديث الاجتماعي». رحمه اللّه، صدق حدسه، لقد كان رجلاً ثاقب الرؤية، معتزاً بوطنيته وبانتمائه إلى هذه الأرض. وقد ورثتُ عنه هذا العشق. ولكن، ما يحزّ في قلبي أن تاريخ أسرتي لم يشفع لي، وتلفّظ عليَّ المحقق بألفاظ نابية وتهكّم عليّ عندما دخلت عليه. أحسست بإهانة كبيرة، وأنت تعلمين مدى اعتزازي بنفسي، أنا طلال السعدي، بكل تاريخ أسرتي العريقة. شعرت كأنني في جزيرة نائية لم تطأها قدما إنس ولا جان، وبيد غليظة تسحلني على الأرض وتقذفني من علوّ شاهق. وما فاقم من أوجاعي ما كان يُكتب في الصحف عني. صُعقت وأنا أرى مقالات زملائي من الكُتّاب وهم ينهشون سمعتي ويسيئون إلى فكري من دون أدنى اعتبار لشرف المهنة، على الرغم من أنهم موقنون في قرارة أنفسهم أنني على صواب، وأن هناك بالفعل عملية تزوير كبرى حصلت في تاريخ المرأة العربية المسلمة، وأن الكثير من الوقائع جرى شطبها في كتب التراث من أجل إلغاء دور المرأة في الحياة العملية!! أتخيلك تقلبين شفتك السفلى معلقة: «كل أصحاب المبادئ الحرة عانوا في أوطانهم»، وتفردين أمامي سلسلة طويلة من أسماء المفكرين والأدباء والعلماء الذين ضحّوا بحياتهم في سبيل تثبيت مبادئهم ومعتقداتهم. أعرف كل هذا، ولكن ردود الفعل التي حاصرتني من الجهات كافة شلّت قدراتي، وألجمت إحساسي، وجعلتني عاجزاً عن إزاحة كتل الألم الجاثمة فوق صدري لأعود وأستكمل خطواتي من

جديد وكأن شيئاً لم يكن!! وهو ما أجبرني على اتخاذ قرار «النفي الاختياري».

لقد بكيت في سجني. هل تعرفين ماذا يعني بكاء رجل؟!! لا تمثل دموع الرجل ضعفاً بقدر ما هي تعبير جارف عن حجم الإهانة التي قد يتعرض لها كل من يحمل بين جوارحه إباءً وشموخاً كبيرين.

لا تعتقدي أن فكرة قطع تذكرة ذهاب من دون عودة جاءت طارئة ونتيجة للظروف الأخيرة التي مررت بها، بل هي فكرة راودتني عندما تركت عملي بالجامعة. لأول مرة تسمعين مني هذه الرواية. لم أُخفها سهواً وإنما لأني لا أحب أن آتي على ذكرها. عندما عدتُ من باريس كان في جعبتي الكثير من الآمال التي أردت تطبيقها في الجامعة. فوجئت بأن مناخ الجامعة غير صحي: الحوار بين الأستاذ وطلبته شبه معدوم، وتنتهي الصلة بينهما مع انتهاء ساعات المحاضرات. اقترحت على زملائي أن نعرض على الإدارة تخصيص يوم مفتوح من كل شهر، نستمع فيه إلى آراء الشباب وما يحملون في جعبتهم من أفكار حتّى يتعلموا قيمة الحوار، وأن نؤسس نشاطات طلابية متعددة تغذي توجهاتهم وتفجّر طاقاتهم. لكن، قوبل اقتراحي بالسخرية من زملائي، وحجتهم أن لا وقت لديهم لإضاعته في مثل هذه الأمور «السطحية». وعندما وقفت أمام ضعاف النفوس من الأساتذة الذين يستغلون ظروف الطلبة، ويلوّحون بورقة الرسوب والنجاح في وجوههم إذا لم يستجيبوا لمطالبهم ويذعنوا لأوامرهم، حاربوني ولفّقوا لي التهم، وأساؤوا إلى سمعتي لدى إدارة الجامعة، حتى دفعوني إلى تقديم استقالتي.

لقد أثقلت الهمومُ كاهلي، وكفاك معاناة معي. تحملتِني عدة أعوام، أخذتُها من نضارة شبابك، وأعلم أنك لن تضنّي عليَّ بالمزيد لأنني واثق بحبّك لي وبحجم عطائك. كنتُ أتمنى أن أعوضك عن سنوات الانتظار، ولكن كيف أستطيع أن أمنحك حضناً دافئاً وصدري مثخن بالجراح؟! إن الحب معادلة غريبة، إذا لم نستطع إيجاد قاسم مشترك لها فستكون النتيجة فشلنا في وضع الإجابة الصحيحة!! كما أن الحب إذا ظل يدور أمداً طويلاً في ساقية الأوجاع، خفَّ بريقه وبهت وهجه وغدا معتلاً حتّى يحمله صاحباه إلى مثواه الأخير ويدفناه في الثرى!!

هناك أشياء أخرى كثيرة أخفيتها عنك، وأريد أن أحكيها لك، حتّى أتحرر من وخز الضمير الذي يرافقني في صحوي ومنامي. أريدك أن تعلمي أنني لست رجلاً مثالياً خالياً من العيوب، بل رجل مُكبّل بموروثاتي التي لعقتها في طفولتي، وإنسان مثقل بالخطايا. و«لكن من كان منا بلا خطيئة فليرجمها بحجر». كنتُ دوماً ضعيفاً أمام رغباتي الجنسية، ودفعتني إلى استخدام كل الحيل لإيقاع أي امرأة أشتهيها في حبائلي!! نعم، لقد ارتكبت ذنوباً كثيرة وأخطأت في حق نساء كثيرات لأُرضي غروري كرجل. وكانت زبيبة المسكينة أُولى ضحاياي. لم آبه لمشاعرها يوم عافتها نفسي. أدرتُ لها ظهري دون أن أُربّت على كتفها أو أقول لها عبارة وداع جميلة لتزرعها في ذاكرتها كوردة جميلة مني. وعندما سافرت إلى بريطانيا عرفت فتيات أوروبيات كثيرات. كانت رغبة الاكتشاف مسيطرة على فكري، التوهُّم كان مسيطراً عليَّ بأن المرأة هناك لا تعرف سوى لغة الجنس، إلا أنني اكتشفت مع الأيام أن المرأة في

كل زمان ومكان واحدة، وأنها تظل في أعماق نفسها تبحث عن الأمان من خلال الرجل الذي تحبه، وأن الاختلاف ينبع من طاحونة الحياة المادية التي سحقت المرأة الأوروبية وأرغمتها على أن تدور في رحاها، بعكس المرأة العربية التي ما زالت تعاني عمليات التشويه المستمرة لتاريخها، وإصرار المجتمع الذكوري على طمس هويتها.

أتذكرين أول لقاء بيننا؟! اقترحتِ مطعماً على شاطئ البحر، وجئت تتبخترين بعباءتك السوداء وقد لففتها بإحكام حول جسدك. يومئذ، طيّر الهواء طرفها ولمحت بنطالك الجينز الضيق يُظهر تفاصيل جذعك السفلي. بهرتِني بجمالك الأخاذ، وأنوثتك المتفجرة، وعمق ثقافتك، واتساع أفقك، وحضورك الطاغي. أطريت يومها جمالك. لكن سأعترف لك بسر: لم تكن تلك أول مرة أراك فيها، بل شاهدتك قبلها. تريدين أن تعرفي أين، وكيف؟! سأخبرك. أتذكرين مكالمتك الأولى لي. لقد أسرتني نبرات صوتك، وتملّكني الفضول لرؤيتك. وقفت أراقبك من بعيد لحظة خروجك من الجريدة وتبعتك بسيارتي حتّى عرفت أين تسكنين، ومع من. أدركت منذ اللحظة الأولى التي رأيتك فيها، أنك المرأة التي كنتُ أبحث عنها. وآمنت تلك اللحظة بالنظرية القائلة بأننا نحمل صورة من نحبهم في أعماقنا لحظة قدومنا إلى الحياة، ثم تكبر دواخلنا إلى أن تصبح حقيقة طاغية. كانت مشاعري مهيأة لحبّك مثل التربة الجافة التي تنتظر موسم الغيث ليروي ظمأها. قررت أن تكوني لي. فعلت المستحيل لكي أجعلك تحبينني. درست كل جوانب شخصيتك، ونقاط ضعفك،

ومكامن قوتك. ولكن، ما حيرني فيك مسحة الوجع الساكنة في عينيك. جعلتني أوقن أن هناك حكاية وراءها، وحيّرني أيضاً حبّك المجنون لي ومحاولاتك العنيدة في مقاومتي في آن، إلا أنني كنتُ مصرّاً على أن أُدخلك عالمي. كانت نزعة الرجولة لا تكفُّ عن طرق ذهني ليلاً ونهاراً، حتّى كانت تلك الليلة التي صارحتني فيها بحقيقة ماضيك، أو بالأحرى «خطيئة» طفولتك. شعرت بجمرة الأنانية والذكورة تشتعل في حنايا فؤادي. رفضت في قرارة نفسي أن أتقبّل أن يكون رجل غيري سبقني وغزا أرض أحلامي وبذر فيها سماده!! كنت أريد أن أكون أول من يحرث هذه التربة البكر. وددت تلك اللحظة أن أصفعك، وأنزع جلدك لأزيل بصماته عن جسدك. فليس أصعب على رجولة الرجل من أن ينتهك غريب ممتلكاته وهو مكتوف اليدين لا يملك حيال الأمر شيئاً!! أكيد أنني في نظرك إنسان رجعي، أناني. وستقولين عباراتك المألوفة: «أليس من حقنا أن نخطئ؟! أليس من حقنا أن نتذوق طعم إنسانيتنا الفطرية؟!». أنا لستُ رجلاً مثالياً يا غادة. أنا إنسان يحمل في داخله بذرتَي التملّك والأنانية، كما يحمل بذرتَي الحب والغفران. صدقيني يا حبيبتي، كل الرجال الشرقيين تجمعهم في أعماقهم صفة واحدة مهما تظاهروا بالتحضّر والتمدّن. يظل في داخلهم «سي السيد» في ثلاثية نجيب محفوظ. كل رجل يريد أن يتحكم في مصير المرأة التي يرغب فيها من منطلق أنها جزء لا يتجزأ من ممتلكاته، ويصرّ على أن يكون الوصيَّ عليها؛ ليس على حاضرها فقط بل منذ اللحظة التي تخرج فيها من رحم أمها إلى لحظة وفاتها!! منطق شاذ، أليس كذلك؟! إنه الرجل الشرقي يا

حبيبتي الذي يصرّ على أن يكون الرقم الأوحد، والويل الويل للمرأة التي تصارح رجلها بهفوات حياتها، ستظل تدفع طوال عمرها أثمان أخطائها من خلال إحاطتها بسياج الشك والريبة ووضعها دوماً في دائرة الاتهام!! لقد ظلمتك تلك الليلة، وبدلاً من أن أطبب جراحك، استغللتُ لحظة ضعفك وأنت في محراب الاعتراف، وتعمّدت اقتحام أرضك لأضع بصمتي فوق خريطة جسدك علّي أمحو بها بصمات رجل آخر سبقني إليها. لا تتعجبي!! سأهمس لك بسرّ آخر: لم تُحركني يومئذ الرغبة بقدر ما كانت تدفعني رجولتي المجروحة!! كنت مصراً على إرضاء غروري ومداواة جرحي. كنتِ تنتفضين حينئذ بين يديّ كطائر جريح يبحث عن عش آمن بعد أن فقد أهله وخلانه. منحتني من ثاني لقاء لنا منفردين كل شيء، ولم تدري أنك كنت تؤججين سعير شكوكي. أتدرين لماذا؟! لأنني وجدت نفسي أمام امرأة مجرّبة، ولست أمام فتاة ساذجة تنتظر فارس أحلامها لتتعلم على يديه فنون الحب!! لم يترك لي الرجل الآخر فرصة تعليمك أصول العشق!! لكنني أدمنت مع الوقت كل شيء فيك: رائحة جسدك؛ عبق أنفاسك؛ لمسات أناملك. وكلما كان ماضيك يهاجمني على حين غفلة، أجذبك إلى حضني وأطفئ براكيني المسعورة في تربتك المتعطشة دوماً إلى الارتواء.

آه، كم سأفتقد كل هذا! من الصعب يا حبيبتي، بل من المستحيل، أن يلتقي رجل امرأة مثلك. لديك كل المزايا التي يحلم بها أي رجل. أنت امرأة «مفسدة» تملكين القدرة على إفساد أي رجل مهما كان متضلعاً في التعامل مع النساء. لا تفهميني

خطأً!! أعني أن الرجل الذي تُلقيه الأقدار في طريقك، من الصعب أن تُشبع رجولتَه امرأة أخرى. لديك قدرة مذهلة على جذب الرجل نحوك من خلال تدليل رجولته. حتّى إذا تسللتِ فجأة من بين يديه، يُصاب بالوجوم ويجوب العالم بحثاً عن نجمة أخرى يشعُّ ضوؤها في فضاء حياته، وليكتشف عند كل مدينة يحط فيها رحاله أنك امرأة يستحيل أن تتكرر على مدى الأزمنة، وأن كل المدن مجتمعة فيك: صخب المدينة؛ جمال الريف؛ حلاوة الطبيعة؛ ثورة البحر؛ خصب النهر.

أتذكرين يوم سافرنا معاً إلى باريس؟! لقد حرصنا على زيارة متحف اللوفر ووقفنا من بعيد نُطالع لوحة «الموناليزا» من كثرة الناس المحتشدين حولها. سألتني يومئذ: «هل يكمن سرّها بالفعل، كما يقولون عنها، في أنها تشارك الإنسان في أفراحه وأحزانه؟!». أجبتك: «أنت في نظري أجمل من أسطورة الموناليزا». أتعرفين لماذا؟! لأن فيك سر الحياة. وكلما تطلعتُ إلى ملامحك تسربت السكينة إلى نفسي. ليتني كنت رساماً لأرسم صفحة وجهك وأنت بين ذراعي، وألقى نفسي أتأمل مشدوهاً هذه اللوحة الفنية الرائعة بكل تعابيرها العفوية. وهذا سرّ حرصي على رؤيتك من دون مساحيق أو أصباغ خارجية، كما يقول نزار قباني في قصيدته «أحبني كما أنا». أحبني بسيطةً عفوية، فالحب ليس مسرحاً نعرض فيه آخر الأزياء.

أودّ أن أضيف سراً آخر: لقد أخبرتني إيزابيلا في واحدة من رسائلها أنها انفصلت عن زوجها ولديها رغبة في رؤيتي، وقد عرجت على مدريد في واحدة من سفراتي المتكررة إلى لندن.

كنتُ في شوق إلى رؤية ماضٍ جميل وحقبة ولّت من ذاكرتي. شيء غريب حصل لي يا غادة!! عندما التقت نظراتنا بعد طول غياب لم تتحرك مشاعري، لم أحسّ تجاهها بأي شيء بالرغم من النداء الصارخ الذي كان يُطل من عينيها. تأكدت تلك اللحظة أنك تربعت على عرش قلبي وسيطرتِ على حواسي كافة. غريبون نحن البشر. نلهث خلف أشيائنا ونبكي طويلاً عندما نفقدها، ولكن عندما تستسمحنا الحياة وتطلب غفراننا، وتقدمها إلينا مجدداً لتسترضينا، نُفاجَأ بأنها لا تستحق كل هذا الكم من الحزن والدموع التي ذرفناها عليها. أتعرفين يا غادة، أكبر خطأ نقع فيه، حين نحاول نبش قبور ذكرياتنا وإعادة رفاتها إلى الحياة من جديد. أتدرين لماذا؟! لأنها تصبح مثل التحف الثمينة التي نقتنيها في رحلاتنا، يكمن سحرها في حاجتنا إلى استنشاق عبقها حين نحسّ بالحنين إليها، ونطيل لحظتئذ النظر فيها وهي موضوعة على رفوف جدران منازلنا.

كنا نُشكّل ثنائياً رائعاً. كانت علاقتنا تمتدّ إلى ساحة الفكر والمعرفة. أتذكرين تلك الليالي التي كنا نتسامر فيها. كنت تحبين أن تدفني رأسك في حجري وتمددي جسدك على الأريكة وتقرئي لي فصلاً من رواية أو قصيدة من ديوان شعر. لقد اجتمعنا على حب نزار قباني واختلفنا على حب أمل دنقل. وكنت تصرّين على أن شعر أمل دنق أعمق من شعر نزار، ولولا الموت والمرض لتفوّق عليه. وكنت أعارضك بشدة لقناعتي بأن نزار قباني شيخ العاشقين، وأمل دنقل شاعر الآلام. أتذكرين حين قرأنا رواية «الحب في أزمنة الكوليرا» لغابرييل غارسيا ماركيز، سألتني ونبرات

صوتك يُغلفها الشجن: «هل للحب زمن محدد مثل أعمارنا؟!»، أجبتك بأن الحب الحقيقي مثل المرض العضال، يصيبنا فجأة ولا نملك القدرة على الشفاء من دائه إلى نهاية العمر. ولطالما حاولتُ أن أقنعك بأن أقوى أنواع الحب ذلك الذي يتحدّى عوامل تعرية الزمن. رددت عليّ: «هل يمكن أن يصمد الحب أمام فراغ الشيخوخة؟! ألا ترى معي أن هدر الزمن في الانتظار يُضيّع أجمل سنوات أعمارنا؟!».

أخذتك آنئذ في حضني وقلت لك: «سيظل قلبي يخفق بحبّك حتى لو صار عمرك مئة عام. الحب الصادق يلغي الساعات والدقائق والثواني. تُصاب عقاربه بالسكتة الدماغية».

أخبرتني في أمسية أخرى عن مقولة إحسان عبد القدوس التي كتبها في روايته «أنف وثلاث عيون»، أن لا شيء اسمه الحب، ولكن هناك شيئاً اسمه التعوّد!! أجبتك: «التعود صنيعة أيدينا، أما الحب فحالة قَدَرية».

كنتِ تتعمدين بين حين وآخر الإتيان على السيرة الذاتية للكاتبة فرجينيا وولف، وتلمحين إلى رسالة الوداع التي تركتها لزوجها تشكره فيها على وقوفه إلى جانبها في سنوات مرضها، ولطالما كنت تتقصدين القول: «ما أجمل أن نموت وصورة أحبائنا تظل مضيئة في أذهاننا ولم تشوهها مواقف أنانية!!». كنتُ أدرك من تلميحاتك أنك تقصدينني بعبارتك، وكنتُ أتعذّب في أعماقي من لمزاتك من دون أن أملك الشجاعة لأصارحك بالبراكين التي كانت تتأجج في جنبات فؤادي.

لقد تجاوزت نقاشاتنا عالم الكتب إلى عالم الفنون الأخرى،

من رسم وموسيقى ومسرح، وكنا نحرص في كل أسفارنا على زيارة المتاحف ومعارض الفنون. كنت مبهورة بالفنان ماتيس، وترين أن فنه مغموس بالرومانسية. وكنت أنا معجباً ببيكاسو، وأنتِ تهاجمينه بشدة وترين أنه أهان المرأة في رسومه وبنى صرح مجده على رفات النساء اللواتي قضين نحبهن بسببه. كنت أثير حنقك بدفاعي المستميت عنه، وتكادين تموتين من الغيظ عندما أؤكد أنه لا بدَّ من أن يكون في داخل هذا الرجل سر خطير دفع النساء إلى التعلق به إلى درجة الموت، محاولاً إقناعك بأن الفنان لا بدَّ من أن يظل في حالة بحث دائمة عن ملهمة جديدة لفنه، ومن الصعب عليه أن يتوقف عند امرأة بعينها وإلا كرر نفسه في لوحاته. كنت تعترضين على هذا الرأي وتستحضرين مثل الفنان سلفادور دالي الذي كان يستمد خطوط فنه من زوجته التي ظلّت ملهمته الوحيدة إلى نهاية عمره. أتذكرين زيارتنا إلى مبنى الفاتيكان في روما؟ أظهرت يومئذ تعبك وخلعت حذاءك، وأصررتِ على أن نكمل جولتنا في ردهات المبنى وأنت حافية على الدرجات. قلتِ يومئذ بمرح: «أريد أن أقلّد جدتي حواء التي كانت تعيش أسمى معاني الحرية. آه، كم أحسدها كونها كانت المرأة الوحيدة على الأرض التي لا تقع عينا آدم على امرأة قبلها!». وكنا في المساء نتسكّع بين المقاهي ويدانا متشابكتان. كانت تجمعنا هموم مشتركة، أهمها التحسّر على حضارتنا. أتذكرين يوم زرنا قصر الحمراء في غرناطة وجلنا في أرجائه؟ دمعت عيوننا يومئذ وظهر علينا التأثر. لم نأبه لنظرات السياح الذين كانوا ينظرون صوبنا بدهشة واستغراب. معذورون هؤلاء الغرباء فهم يجهلون تاريخنا،

لم يُضيّعوا إرثاً حضارياً عظيماً مثل الذي أضعناه، ولم يصلوا إلى الدَّرك الأسفل من التفكك والضعف والمذلة الذي وصلنا إليه. كل الذي أصبحنا نجيده هو صناعة الدموع!! لقد حدثونا ونحن صغار في مدارسنا عن عظمة حضارتنا، لكنهم لم يعلمونا كيف يمكن أن نسترد كرامتنا ونبني صرح حضارتنا من جديد. وهذه هي معضلتنا الكبرى. ما زلنا نجلس في المقاهي ونسرد بطولات أبي زيد الهلالي، ونرفع عقيرتنا بالغناء على أمجادنا التي ولّت، ونقص على أطفالنا كيف حكم العرب والمسلمون العالم. لكن عندما يطرح أحدهم سؤالاً مغلفاً ببراءة الطفولة: وماذا بعد؟! يحسّ المرء بالاختناق، وبحاجته إلى التنفس في أجواء نظيفة. وتتجمد حباله الصوتية، ويجيب والزفرات تخنقه: نحن السبب!! وحين يحاصره طفل بسؤال ساذج: ولماذا نحن السبب؟! تتوه نظراته، وينعقد لسانه، ويُصاب جسده بحمى الخوف، ولا يملك الشجاعة للاعتراف بأن الحرية عندما تُسجن في أقفاص مرمرية بحجّة المحافظة على مجتمعاتها من الانحطاط الفكري، تُصاب بلوثة الجنون ويلحقها عار التخلف!!

هناك شيء حدث أخيراً في علاقتنا. تحاشيتِ بعد موت صديقتك نشوى لقائي. احترمت رغبتك لأني تلمّست أنك في حالة مراجعة شاملة مع نفسك. لم أُلقِ اللوم عليك لأن المصائب التي مرّت بي وبك جعلت كلاً منا يدور في ساقية أوجاعه. وفاقد الشيء لا يعطيه. وربما، لأننا لا نتعلم في مجتمعاتنا العربية كيف نضع فواصل بين مشاعرنا، لذا تتداخل دوماً ردود أفعالنا مع مواقفنا في الحياة!!

لقد تعبتُ من اجترار الذكريات، لكن هناك حقيقة مؤكدة في داخلي، بأنك صحافية موهوبة وسيكون لك يوماً مستقبل باهر في عالم الصحافة، وستصبحين لامعة يُشار إليها بالبنان. المهم أن تصمدي، وألاّ تنصاعي للتقاليد التي تريد أن تعيق حركة المرأة. كوني شجاعة وابدئي بالعمل على التغيير، وتأكدي من أن التغيير سيتحقق، حتّى لو لم يتم في عهدك فستحمل الراية الأجيال التي ستجيء بعدك. وسوف يحدث التحول الاجتماعي. صحيح أنه بطيء مقارنة بالبلدان العربية الأخرى نتيجة التركيبة الاجتماعية التي يقوم عليها مجتمعنا السعودي، إلا أن عجلة الزمن لا بدَّ من أن تمضي.

أريدك أن تكوني على يقين تام بأنني أحببتك وأن حبي لك صادق، وأنني تعلمت منك طهارة القلب، ومعنى العطاء، وقيمة الوفاء. لكنّي لن أطالبك بالمزيد، ولن أدعك تهدرين شبابك في سنوات الانتظار، لأني لا أود أن أرتكب مزيداً من الآثام في حقك. انظري إلى المستقبل بتفاؤل ولا تتوقفي عند درب الذكريات طويلاً، فقد يصيب استرجاع الماضي وتأمله صاحبه بالجنون. حرري نفسك من قيود حبي، فقد يجرفني تيار الغربة مثلما جرف كثيرين غيري. أنا رجل اختار التحليق في فضاءات جديدة وقد تعتاد حاسة شمّه رائحة الاغتراب. وعليك أن تنتبهي إلى أنك تقفين وسط رمال متحركة قد تسحبك إلى قاعها من دون أن تملكي حيلة تخليص نفسك منها، وأنت لاهية في التهام سطوري، ولكنني واثق بأنك بقدر رقة عواطفك، أنت صلبة في أعماقك، وقوية في مواجهة آلامك. وأختتم رسالتي بمقولة سقراط

«إن أعظم امرأة هي التي تعلّمنا كيف نحب ونحن نكره، وكيف نضحك ونحن نبكي، وكيف نصبر ونحن نتعذّب». لقد كنتِ إكسير حياتي وستظلين دوماً أروع ذكرى في عمري».

* * *

انهمرت الدموع غزيرة على وجنتي غادة. كانت في حالة وجوم. قرأت رسالته مرات ومرات، متمتمة بصوت خافت: هل مكتوب عليّ أن أفقد أحبائي؟! ما الذنب الذي ارتكبته لأكون ضحية الرجلين اللذين أحببتهما في حياتي؟! جاءا وعبثا بقسوة في بوصلة حياتي بتحريك مؤشرها إلى الجهة التي يريدانها!! هل الخطيئة تصنع شخصيتنا أم أنها وسيلة جبارة لدفعنا إلى قاع الرذيلة بعد أن تنعدم رؤية الصواب لدينا؟! ما الفرق بين أن نعطي باسم الحب، وأن نعطي الغرباء من أجل تحقيق أماننا المادي؟! هل في هذين المسلكين عدالة متوازنة؟! أليست الخواتم واحدة كما قالت لي يوماً نشوى، وكما نبهتني من أننا نفقد آدميتنا ونبيع ضمائرنا من أجل تطلعاتنا الذاتية؟!

تلوح أمامها صور طفولتها وتتداخل مع زيد، وطلال، وناصر، حتى تصبح مثل خطوط هلامية لا ملامح لها. تظهر فجأة صورة والدتها وهي تنتحب على زواجها الذي انهارت دعائمه، وتتذكر والدها في لحظاته الأخيرة، وتتمتم بصوت خافت: حتّى حبه لم أحسّ به إلا متأخراً. كأن الخوف من لحظات الفراق ينبه حواسنا ويجعلنا نتشبث بمن نحبهم، لإحساسنا بأننا لم نعطهم حقهم ونودّ تعويضهم عن سنوات العزلة التي مرّت علينا. تتذكر

عباراته. «لقد وقفت في الماضي أمام طموحاتك، لكنني أعترف اليوم بأنني كنتُ مخطئاً. كم أتمنى أن يطيل اللّه عمري لألمس نجاحاتك، لكن يظهر أن القدر لن يمهلني لأرى هذا اليوم». ثم تطفو صورة نشوى صديقتها، هيئتها وهي صغيرة بردائها المدرسي وأحلامها الطفولية. ترتسم ابتسامة حزينة على شفتيها حين تتذكر تلك الواقعة المكررة، وسؤال المعلمة لكل واحدة منهن. «ماذا تريدين أن تكوني عندما تكبرين؟». كانت نشوى تقف وتقول بصوت عال: «أريد أن أكون عروسة»، فيضجُّ الصف بالضحك. وتبتسم المعلمة معلقة: «هذا حلمك الخاص. ألا يوجد لك حلم آخر؟! يجب أن يكون لكل واحدة منكن حلم كبير. ربما لا تفهمن كلامي الآن لصغر سنّكنّ لكن عندما تكبرن ستدركن أن قيمة الإنسان في الحياة تنبع من خلال خلق حلم كبير يحيا من أجله. هذا الحلم هو الذي سيكون اللبنة الحقيقية لبناء مستقبله. واحترام الناس ما هو إلا انعكاس لاحترامه لذاته، ولما يحققه من إنجازات».

أوقفت سيل ذكرياتها. أخذت تُقلّب أوراق طلال بين يديها. كانت محبطة، يائسة، كمن سقط في بئر لا قرار لها. تصرخ فلا يسمع صوت آهاتها أحد. هل كانت صديقتها نشوى تعرف هذا المصير الذي آلت إليه، يومَ أفضت إليها بهذه النبوءة. رفضت التصديق أن طلالاً اختفى من حياتها. سألت نفسها: هل نملك السلطة على قلوبنا، بتحريك نبضاتها متى نشاء، وإخماد أنفاسها في اللحظة التي نريدها؟! ولكن لماذا تتذكر نشوى الآن. لن تستسلم مثلها. لن تكون صورة مطابقة عن نشوى. راحت تناجي

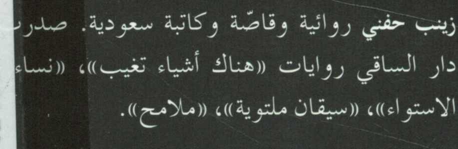
نفسها: لم يفت الوقت بعد. لن أُلقي بنفسي في الماء قبل أن تغرق السفينة كما يقولون في الحِكَم الصينية. لا بدَّ من أن أحيا بأمل الغد وأن أتشبث بشعاع المستقبل. لن أدع حياتي تصبح مثل ريشة تتقاذفها رياح الذكريات. يجب أن أمتطي جواد إرادتي لأدلف إلى حدائق المستقبل بروح متفائلة. ثمة أشياء أخرى كثيرة تستلزم مني المواجهة. أمامي قضايا إنسانية كبيرة تحتاج إلى دفاع مستميت عنها.

كان جسدها يرتعش مثل شجرة تتمايل أغصانها في ليلة عاصفة في نهاية فصل الخريف. لا تدري كم من الوقت مضى وهي غارقة في دوامة فجيعتها وذكرياتها. وقفت أمام المرآة. مسحت دموعها مردّدة: لا دموع بعد اليوم. انتبهت فجأة إلى جرس الهاتف يرنّ بإلحاح!!

انتهت

غادة فتاة سعودية... دفعت أثماناً كثيرة على مدار عمرها. دفعت ثمن براءة طفولتها. دفعت ثمن وفائها لرجلين أحبّتهما بعنف فخذلاها وأوليا لها ظهريهما. دفعت ثمن تمرّدها حين قرّرت أن تحقّق ذاتها، وتُوجد لنفسها مكاناً في عالم الصحافة، لتدافع عن حقوقها كإنسانة داخل مجتمع صارم بتقاليده وأعرافه. إنها قصّة امرأة عصفت بها رياح الحياة، لكنّها استطاعت أن تقهر بقوة إرادتها أحزانَها، وتجفّف دموعها، وتتحدّى واقعها...

«زينب حفني كاتبة سعودية متميّزة. في كتابتها جرأة تُجاوز المتوقّع، وصراحة تُشبع النهم إلى المعرفة. وبطلاتها كأبطالها يتحرّكن في حيوية لا تخلو من التوتّر الذي ينطوي عليه من يرغبون في تجاوز شروط الضرورة، ويتطلّعون إلى آفاق الحرية المسؤولة. وأسلوبها في الكتابة سلس لا يخلو من التشويق الذي يدفع القارئ إلى متابعة السرد إلى نهاياته ليعرف ما يظلّ في حاجة إلى المعرفة والكشف.» **(الدكتور جابر عصفور، مدير المركز القومي للترجمة في مصر)**



زينب حفني روائية وقاصّة وكاتبة سعودية. صدر... دار الساقي روايات «هناك أشياء تغيب»، «نساء... الاستواء»، «سيقان ملتوية»، «ملامح».



